صالح أحمد الشامي

في سبيل
حياة اجتماعية أمثل





الطبعة الأولى
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

في سبيل
حياة اجتماعية أمثل

إعداد
صالح أحمد الشّامي



دمشق





المقدّمة



الحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم ، على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلَّم .

وبعد :

فهذه خواطر وبحوث كُتبت في أوقات متباعدة تارة ، ومتقاربة تارة أخرى ، ولكن يجمعها الباعثُ على إعدادها ، وهو انشغال الفكر في العمل على نهضة الأمة .

ونهضة الأمة لا تكون إلا بتعاون عدد كبير من العوامل ، وتضافُر عدد كبير من الجهود حتَّى نصل إلى المطلوب .

ـ لابد أن يُصلح الفردُ نفسَه .

ـ ولابد أن يقوم العالِمُ بدوره .

ـ ولابد أن يؤدي الحاكمُ واجبَه الكبير في سبيل ذلك .



وقبل ذلك لابد من معرفة دقيقة بالواقع الذي نحن عليه ، وتصور للغاية التي نريد الوصول إليها .

إنها كلمات وخواطر في هذا السبيل ، أرجو أن تكون نافعة ، وهي جهد المُقِلِّ .

هذا ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم ، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين .

غرة ربيع الأول ١٤٣٥ هـ
٢/١/٢٠١٤ م

وكتبه
صالح أحمد الشامي



بين يدي الكتاب



إن الإنسان الذي أتيح له قدر من العلم الذي لابدَّ منه لكل مسلم ـ بحيث يكون له إِلمام بالخطوط العريضة للمنهج الإسلامي ، ويكون له اطلاع على السيرة في العهد النبوي ، وعلى تاريخ الخلافة الراشدة ـ يستطيع أن يتخيل بفكره التصوُّر العام للمنهج الإسلامي العظيم ، وهو يحكم المجتمع ويقود خطاه .

وإنَّك ـ أخي المسلم ـ ستكون في سعادة لمجرد إدراكك لهذا التصوُّر الذي كان واقعاً في دنيا الناس في يوم من الأيام .

فما بالك! وكم ستكون سعادتك لو عشتَ هذا التصوُّر واقعاً يحكم حياتك وحياة الناس؟! .

ولكنك ـ في المقابل ـ ستكون أمام تراكمات من الهموم ، يستدعيها كلُّ ما هو حولك .

إنك ستكون أمام «**لو**» ليست تلك التي تتعلَّق بالماضي وتفتح عمل الشيطان ، ولكنها «**لو**» الأخرى التي يستدعيها



ذلك التصوُّر الذي استقرَّ في فؤادك.

ـ عندما ترى الناس، واختلافهم على الدنيا، وتكالبهم عليها، فيأتيك الخاطر ليقول لك: «**لو**» أن هؤلاء تربَّوا على الإسلام لكان لهم شأن آخر.

ـ وعندما تطَّلع على ارتفاع نسبة الطلاق، وازدياد الخلاف بين الأزواج... فيأتي الخاطر ليقول لك: «**لو**» أن هؤلاء بنَوا زواجَهم على أساس من ثقافة الإسلام وقيَمِه، لكان الحال على غير هذا.

ـ وعندما تسمع نشرات الأخبار، ويعتصر الألمُ قلبَك، بسبب ما أصاب المسلمين من ضعف وهوان، تأتي «**لو**» لتقول لك: «**لو**» حكَّم المسلمون إسلامهم في حياتهم لما كان الأمر كذلك.

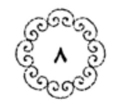
ـ وعندما... وعندما...

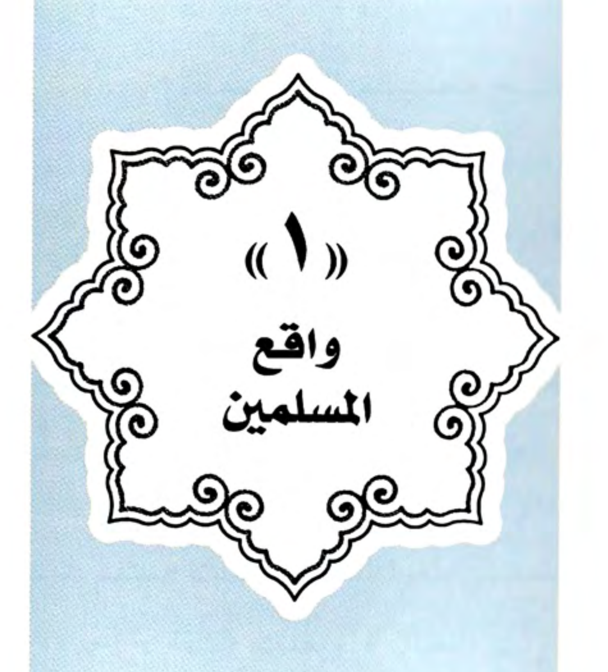
إنها الخواطر يستدعيها كلُّ ما حولك، سواء أكان ذلك في تصرُّفات الأفراد، أو في واقع الجماعات.

خواطر.. تضعك أمام مقارنة بين ما أراد الله لهم أن يكونوا عليه عندما يستمسكون بدينهم. وبين ما هم عليه..

إنَّها خواطر، لابد أن تبعث فيك الهمة والمبادرة للعمل.







«١»
واقع
المسلمين

بيان واقع المسلمين وسبيل النهوض[1]

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله :

«أحوال المسلمين سيئة منذ عدة قرون .

لقد كانوا فترة طويلة خيرة أمم الأرض .

ثم خفَّت كفتهم قليلاً ، فأصبحوا سواء مع أمم أخرى .

ثم هبطت جُدودهم فأضحوا دون كثير من الأمم .

ومن الطيش في الفهم ، وفي الحكم ، أن نُرجع ذلك إلى الإسلام .

فإنَّ المسلمين بلغوا القمم يوم كانت صلتهم بدينهم وثيقة .

فلما رثَّت الحبال ، وبعدت الشُّقَّة ، أخذوا يتقهقرون

---

(١) جاء هذا المقال في آخر كتاب: هذا ديننا، للشيخ محمد الغزالي، تحت عنوان «خاتمة» ، والكتاب صادر عن دار القلم بدمشق. والمؤلف ـ رحمه الله ـ إنما قصد توصيف حال المسلمين ، وبيان الأمراض التي ألمَّت بهم ، وعمل على بيان المخرج.

رويداً رويداً ، حتى أصبحوا آخر الأمر في منزلة القائل :

تقـدمتنـي أنـاسٌ كـان شـوطُهـم
وراء خطـوي لو أمشـي علـى مهـلِ

* * *

وسرُّ التأخُّر لا يعدو سببين :

١ـ العصيان الجسيم لجملةٍ من هدايات الإسلام في ميادين الحياة الرئيسة ، مع وضوح النهج ، وإبصار القصد .

٢ـ وانقلاب مفاهيم مهمة من حقائق الإسلام، مع شيوع كثير من البدع والخرافات ، حتَّى إنَّ جمعاً غفيراً من الأتقياء كان يعبد الله بغير ما شرع ، ويتقرَّب إليه بغير ما أنزل .

* * *

وما انهدم خلال قرون لا ينبني خلال شهور أو أعوام .

لابدَّ من عودة طويلة الأمد ، ضافية الذيول ، تستغرق من الجهد والوقت الشيء الكثير ، ذلك أن الدِّين في إبان ازدهاره يكون نوراً في الضمائر ، وصلاحاً في الأعمال ، ورعاية للأمانات، ووفاءً بالعقود ، وصدقاً مع الله والناس .

فإذا تطاول العمر .

وتراخى الزمان .



وجاء أخلاف بعد أسلاف . .

تحوَّل الدين إلى :

لغوٍ على الألسنة .

وصغرٍ في الهمة .

وحرص على المظاهر .

وتفريط في الحقوق . .

وربما اتُّخذت مراسيم الدِّين ستاراً لعلل النفوس وشهواتها ، ومتنفَّساً لأغراضها ومآسيها .

ومن حقِّ الدِّين في الحالة الأولى : أن يسود ، وأن ترقى أمته .

ومن حقِّ الحياة في الحالة الأخيرة : أن تتبرَّم بالمتديِّنين الخادعين والمخدوعين على السواء ، وأن تنزل بهم من علو إلى سفل ، ومن نصر إلى هزيمة .

والقانون الصارم هنا ، هو قول الله جل شأنه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

* * *

وعمر النهضة الصحيحة ، هو ما يتطلَّبه ذلك التغيير من مدة تطول أو تقصر . . المدة التي يقتضيها :

تحوُّل الهزل إلى جدٍّ .



والزُّور إلى الحق.

والغدر إلى وفاء.

والغباء إلى ذكاء.

أتظن ذلك يحدث بين عشية وضحاها؟ هيهات!..

إنَّ تفهيم الجاهل: أنَّه جاهل، يستغرق أمداً.

وإقناعه بالترقِّي، يستغرق أمداً.

وتنقيله من مرحلة إلى مرحلة، يستغرق أمداً.

وإزاحة الرُّكام الغليظ من مخلفاتٍ ماضيةٍ، يستغرق أمداً.

وشق الطريق الصاعدة إلى أعلى، أو الماضية إلى أمام، يستغرق أمداً.

وإذا كانت تربية شجرة فاكهة تستغرق سنة، فكيف بتربية نفس؟! وكيف بإحياء أمة؟!.

ألا ما أشقَّ العبء على الدعاة الصادقين!..

وما أثقلَ الرسالة التي يحملها بناة الأمم!..

* * *

يقرأ أحدهم:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فيحسب أنَّ المشيئة الإلٰهية تقلب مصاير الأمم كما تنقلب الورقة في يد أحدنا دون اكتراث.

قلتُ لأحد هؤلاء: دعوا هذا الفهمَ الصبيانيَّ للحياة والأحياء.

إنَّ نزع الملك في فلسطين من قوم، وإيتاءه قوماً آخرين، نتائج انتظمت مقدماتها خلال خمسين أو مئة سنة.

ولكي تعود البلاد إلى أهلها، ولكي تحظى أمة بالربح بعد الخسارة، لابدَّ أن تفتش بدقة في أسباب مُصابها، ثم تمهد للنتائج المرجوة بالأعمال التي تثمر الخير، وتقرِّب النصر، ولابدَّ أن تصبر على ذلك وتصابر.

فإنَّ منطق المقامرين في الربح والخسران، قد يصحُّ في ميدان اللعب، أو على موائد العبث، ولكنه لا يصحُّ أبداً في ميادين الحياة.

* * *

وأمتنا الإسلامية جهلتْ من الدنيا، بمقدار ما جهلتْ من الدِّين، ونسيتْ من عالم الشهادة، بمقدار ما نسيتْ من عالم الغيب.

ولا يتوهمنَّ واهم: أنَّ اضمحلال العمران، وكلال الأذهان، وانتشار الفاقة، راجع إلى أن القوم شغلهم تعمير

الآخرة عن تثمير الدنيا ، فكان سعيهم للجنة على حساب هذه الحياة ، كلا ! .

إنَّ الفشل أصابهم في الميادين جميعاً ، والعجز الذي لحقهم في أداء رسالتهم أزرى بهم هنا وهناك . .

فكان التخلُّف الذي رأينا .

وكان الاستعمار الذي سقطت البلاد الإسلامية بقضِّها وقضيضها بين أنيابه الزرق .

* * *

إنَّ هذه الأمة تحتاج إلى :

أمواج من المعرفة تحيي مواتها .

أمواج يمدُّها وابل هتَّان لا ينقطع صيِّبه .

أمواج من المعرفة بكلِّ شيء خرج من الأرض ، أو نزل من السماء .

إنَّ ظمأها إلى العلم محرق ، وصداها إلى فنونه شديد ، وما لم يسعفها هذا الفيضان من المعرفة ، فإنَّ الجفاف سيجعلها صحراء موحشة من الحياة ، والحديث عن العلم تمهيد للحديث عن التربية .



إنَّ ارتفاع المستوى العلمي لا يغني عن سناء الخُلق ، واكتمال الفضيلة .

والعلم جزءٌ من العظمة الإنسانية يوم يكون له سناد من الضمير الزاكي والهدف الراقي .

أما إذا صحبته الشهوات الطائشة ، والنيَّات الرَّديئة ، فإنَّ زيادته تستحيل نقصاً، وقدرته على التسامي تستحيل إلى قوة على الهبوط .

ومن هنا: كان اتجاه الدِّين أولاً إلى النفس يريد تزكيتها ، وتهذيب نوازعها ، وإعلاء غرائزها ، وكَبْتَ ما يجب من ضراوتها وقساوتها .

وعندما يبلغ الدين هذه الغاية ، يكون قد ضمن القيادة ، واستوثق من سلامة السير .

لكن كيف يتم هذا الأمل العظيم؟ .

* * *

إنَّ الأخلاق الرفيعة لا تتكوَّن بالدراسة النظرية ، كما لا تتكوَّن بالأوامر العسكرية . . الأمر أعقد من ذلك .

فمع الأمر والنهي ، والترغيب والترهيب ، لابدَّ من حساب البيئة وظروفها .



وقد رأيتُ بتجربتي :

أنَّ الأخلاق تهون في بيئة الحاجة والشظف ، وتكرم في بيئة الاستغناء والسعة .

وأنَّها تكسر في بيئة الاستبداد والجبروت ، وتستقيم في بيئة الحرية والكرامة .

إنَّ الأخلاق قد تكون في بطون الكتب ، أو على ألسنة الدعاة مقالات رائقة، كما تكون الأدوية في زجاجاتها وعليها مواد ثمينة نافعة ، بيد أن هذا وذاك لا غناء فيه ما لم يُتناوَل بإعزاز وعناية، ويخلط بكيان الإنسان ليتحوَّل فيه حياة وعملاً .

وقد قال الله في كتابه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

ونحن ما نشكُّ في أنَّ القرآن يتضمَّن أشفية شتى لأنواع السقام البشري ، ولكن الأمم التي تتبع هذا الكتاب العزيز معلولة في أغلب أحوالها ، بل هي صريعة أدواء شنعاء ، وذلك لأنَّها ظنَّت أنَّ القلوب يمكن أن تمتلئ بالإيمان والإحسان دون جهد ، كما يمتلئ الكوز بالماء إذا غمس في البحر .

ولعمري! إنَّ هذا لهو المجون ، ومن المستحيل أن



يبلغ شيء تمامه بهذه الطريقة، ولا أن يثبت حقٌّ أمام باطل بهذا الأسلوب . .

* * *

إنَّ الأمر يحتاج إلى رياضات طويلة المدى ، وعلاجات مضبوطة منسَّقة .

ورياضات الدين إنَّما هي العبادات ، بهذه الأساليب المتوارثة والكيفيات المنقولة إلينا عن ربِّ العالمين .

وإذا كان غرس الدين ـ وهو معقد الفضائل كلِّها ـ يحتاج إلى هذا الدأب والنَّصب ، فكيف بغرسِ أنواع الأخلاق خلقاً خلقاً؟ ! . .

المشكلة : أنَّ التربية الدينية والخلقية ـ لكي تؤتي ثمارها ـ لابدَّ فيها من السيطرة على البيئة كلِّها ، وتسخير عناصرها في جهاز دقيق متراكب، يضمن آخر الأمر أن تُصاغ النفوس صياغة صالحة ، وأن تأخذ النهضات بعدئذ وجهتها السَّديدة ، والله وحده ولي التوفيق» انتهى كلامه رحمه الله .

* * *

أقول: وهذا المقال يضع يدنا على أهم الأسباب التي أدَّت إلى هذا الواقع ؛ ومنها :

ـ البُعد عن هدي الإسلام في الميادين الرئيسة للحياة .

ـ شيوع البدع ، وغياب المفاهيم الصحيحة .

ـ الجهل بالدنيا وأسبابها ، ولم يكن هذا على حساب العمل للآخرة ، ولكنه الفشل في كل الميادين .

ـ غياب العامل الأخلاقي عن الواقع العملي .

ـ كما يضع بين أيدينا الوسائل التي تؤدي إلى الخروج من هذا الواقع ، والبناء لنهضة صحيحة تعيد الأمة إلى مكانتها .

ـ ولكن هذا سيستغرق وقتاً ليس بالقليل .

ـ وذلك يحتاج إلى نشر الثقافة والعلم .

ـ هذا العلم الذي يقوم على جناحين : علم الدنيا ، وعلم الآخرة .

ـ وبالتالي : العمل للدنيا ، كما هو العمل للآخرة .

ـ البناء الخلقي ، وهذا لا يكون بالدراسة النظرية ، وإنَّما بالتربية العملية .

هذا وأرجو أن يكون في البحوث القادمة ما يغطي بعض هذه الميادين ويشرحها .

* * *





((٢))

المبادرة بالأعمال



المبادرةُ بالعَمَل

إنَّ على من أراد الإصلاح والعمل على نهضة الأمة ، المبادرة بالعمل الجاد ، وعدم التباطؤ والإمهال .

والمقصود بالعمل هنا : العمل للدنيا ، والعمل للآخرة ، فالإسلام لا يفصل بين العملين ، فالكلُّ تحت مظلَّة هذا الدِّين ، طالما هو الائتمار بما أمر الله ورسوله ، والانتهاء عمَّا نهى عنه الله سبحانه ورسوله ﷺ .

والوقت ـ الذي هو محلُّ العمل وظرفه ـ هو أثمن ما يمتلكه الإنسان، لأنَّه هو الحياة، وهو سريع التفلُّت ، لا يمكن الإمساك به بملاحقته من ورائه ، وإنَّما بالمبادرة والمسارعة لتلقِّيه قبل دخوله .

وهذا يعني أن تعدَّ الأمور مسبقاً حتَّى يمكن تنفيذها في الوقت المناسب ، لا أنْ ينتظر الوقت ، ثم نبدأ التفكير بعد ذلك : ما نعمل فيه .

والأحاديث الشريفة تحثُّ على المبادرة بالأعمال الصالحة ، قبل تعذُّر القيام بها ، والاشتغال عنها بما يحدث من شواغل وصوارف وفتن . .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ قال :

(بادرُوا بالأعمال سَبعاً ، هل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً ، أو غنًى مطغياً ، أو مرضاً مُفْسِداً ، أو هَرَماً مُفَنِّداً ، أو مَوْتاً مُجْهِزاً ، أو الدَّجالَ ، فَشَرُّ غائبٍ يُنتظرُ ، أوِ الساعةَ ، فالسَّاعةُ أدهى وأمرُّ)[1] .

وعنه رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ قال :

(بادروا بالأعمال فِتَناً كقِطَعِ اللَّيل المُظْلم ، يُصبحُ الرَّجلُ مؤمناً ويُمسي كافراً ، أو يُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً ، يبيع دينَه بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا)[2] .

فالحديث الأوَّل : يتناول بعض العوارض ، وهي أمور إذا وقعتْ حالتْ دون أداء العمل جملة ، أو أدائه على وجهه كما ينبغي ، ولذا كان على المرء أن يبادرها ويسبق إلى اغتنام الوقت فيقدم الأعمال الصالحة .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (١١٨).



فالفقر عارضٌ شاغلٌ ، ولا شكَّ بأنَّ الجوعَ أو الهمَّ بأمر أولادٍ وزوجةٍ جياع ، يملك على الإنسان عقلَه وفكرَه ، ويحول دون أداء ما ينبغي أداؤه .

والغنى أيضاً عارضٌ شاغلٌ ، بل ربَّما كان أكثر إشغالاً للإنسان من الفقر ، ذلك أن الفطرة داعية إلى تنمية المال وزيادته ، وهذا أمر لا ينتهي ، فكلما زاد مالُ الإنسان زاد انشغالُه ، وهذا أمر واقع مشاهَد ، ولو أنَّ لابن لآدم وادياً من ذهب لابتغى له ثانياً . .

والمرض والهرم ـ كلُّها شَواغل ـ تحول دون إنتاج العمل المفيد .

والحديث الثاني : يتحدَّث عن الفتن ـ عندما تقع ـ ويبيِّن قوَّتَها ، ومقدار ثقلها ، حتى يصبح «الدِّين» سلعة تُباع وتُشتَرى ، بل يُصبح سلعة رخيصة الثمن .

فيُصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً .

ويُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً .

يبيع دينه بعرض من الدنيا .

والأعمال الصَّالحة التي يحضُّ عليها الرسول الكريم ، ويدعو إلى المبادرة إليها ، من فوائدها : أنها تزيد في الإيمان ـ كما هو متفق عليه لدى أهل السُّنَّة والجماعة ـ

وهذه الزيادة ربَّما كانت حائلاً دون أن يهبط المسلم إلى هذه الحالة التي يزهد فيها بدينه مقابل عرض من الدنيا قليل.

والأحاديث التي دَعَتْ إلى المبادرة بالعمل، حدَّدَتْ لنا العوارض والعوائق التي ينبغي مبادرتها، حتى نكون على بصيرةٍ من أمرنا.

ويمكن إرجاع هذه الأمور إلى أربعة أصناف:

- مبادرة الفتن.
- مبادرة الأعراض التي تشغل الإنسان في حياته.
- مبادرة أشراط الساعة وعلاماتها.
- مبادرة الأجل.

ولعل «**مبادرة الأجل**» هي الأمر الذي لا ينجو منه أحد، فهي الأكثر وقوعاً، لأنها تشمل الناس جميعاً، ولذلك كانت الأكثر أهمية.

وقد تنبَّه السَّلف ـ رحمهم الله ـ لهذا الأمر، وكان استعدادهم له كبيراً، وجاءت كلماتُهم لتؤكِّد هذه الحقيقة.

فنهاية حياة الإنسان مجهولة له، ولذا كان تسويف الأعمال أمراً غير محمود، فربما سَوَّف عملاً... فجاءت منيتُه فحالتْ دون تنفيذه، وبهذا تكون الخسارة فادحة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التؤدة في كلِّ شيء

خير ، إلا ما كان في أمر الآخرة[١] .

وقال الحسن البصريُّ رحمه الله : بادروا بالعمل الصالح قبل حلول الأجل ، فإنَّ لكم ما أمضيتم ، لا ما أبقيتم[٢] .

وقال أيضاً : ابنَ لآدم ، إياك التسويف ، فإنَّك بيومك ، ولستَ بغدٍ ، فإن يكن غدٌ لك ، فَكِسْ فيه كما كِسْتَ[٣] في اليوم ، وإلاَّ يكن لك ، لم تندم على ما فرطت[٤] .

وقال أبو بكر رضي الله عنه في إحدى خطبه : «ثم اعلموا عباد الله ، أنَّكم تغدون وتروحون في أجل قد غُيِّب عنكم عِلْمُه ، فإن استطعتم أن تنقضيَ الآجالُ وأنتم في عمل الله فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلاَّ بالله ، فسابقوا على مهل آجالكم قبل أن تنقضي آجالكم ، فيردكم إلى أسوأ أعمالكم»[٥] .

إن الوقت ماضٍ لا يتوقف ، فالمبادرة المبادرة إلى لقائه قبل مجيئه بترتيب الأعمال المراد إنفاذها فيه .

* * *

---

(١) الزهد ، للإمام وكيع : ٢/ ٥٢٣ ، برقم (٢٦١) ، ورجاله ثقات .

(٢) العقد الفريد : ٣/ ١١٨ .

(٣) من الكياسة ، وهي حُسْن التصرُّف .

(٤) كتاب الزهد ، لابن المبارك ، ص ٤ .

(٥) حلية الأولياء : ١/ ٣٥ .





الأمـل والتســويف

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال: خطَّ النبيُّ ﷺ خطّاً مربعاً ، وخطَّ خطّاً في الوسط خارجاً منه ، وخَطَّ خُطَطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط ، وقال:

(هذا الإنسانُ، وهذا أجلُه محيطٌ به، وهذا الَّذي هو خارجٌ أملُه ، وهذه الخططُ الصِّغارُ الأعراضُ ، فإنْ أخطأه هذا نهشه هذا ، وإنْ أخطأه هذا نهشه هذا)[١] .

• شرح الكلمات:

الأعراض: جمع عَرَض: وهو ما ينتفع به في الدنيا في الخير والشر ، والمراد به هنا: الآفات العارضة للإنسان التي تودي بحياته وقد يَسلم منها .

---

(١) رواه البخاري: (٦٤١٧).

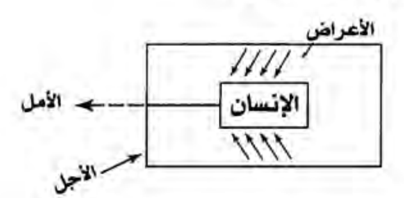


نهشه: أصابه.

• معنى الحديث:

نقل الرسول الكريم ﷺ الصورة المعنوية في هذا الحديث؛ ليجعل منها صورة حسِّيَّة تقع عليها العين، وتتلمَّسها اليد، فذلك أثبت للمعنى في الفكر، وأسرع في تلقي الفهم.

وقد ذهب المفسِّرون في رسم هذه الصورة إلى ذكر أشكال متعددة نقلها ابن حجر في شرحه للبخاري، وأرى أن الشكل الآتي أقرب منها جميعاً:



وهكذا فالإنسان ضمن المربع الكبير الذي يمثل أجله المحيط به، فهو لن يستطيع مجاوزته، لأنَّ حياته تنتهي عند وصوله إلى هذا الخط، والسهام الصغيرة هي الأعراض التي تتناوله، وقد يوصله أحدها إلى نهايته، فإن تجاوز هذه الأعراض، ولم يكن مقدَّراً عليه أن يموت بسبب واحد منها، أوصله توالي الليل والنهار إلى خطِّ الأجل، وعندها تنتهي حياته.

ولكنَّ الأملَ الذي يحمله الإنسان يتجاوز عادة خطَّ الأجل ، وقد يكون هذا التجاوز إلى مسافة بعيدة.

فكثيراً ما يخطِّطُ ابن الخمسين أو ابن الستين ، بل وابن السبعين إلى أعمال أو أحلام يحتاج تنفيذها إلى سنوات وسنوات ، ممَّا يتجاوز متوسط عمر الإنسان ، ناسياً قرب أجله ، بل ربَّما لا يخطر له ذلك على بال..

وهكذا فخطُّ الأمل نافذ ، وقادر على اختراق خط الأجل ، والوصول بعده إلى مسافات بعيدة.

وفي هذا ما فيه من الحكمة الإلٰهية في عمران البلدان ، والاستفادة من طاقة الإنسان حتى آخر لحظة من حياته ، هذا في الجانب المادي.

وهذا المعنى واضح في «الشكل» كلَّ الوضوح.

ومع هذا فالحديث يهدف إلى معنى آخر؛ وهو إيضاح أنَّ العمر ليس مرتبطاً بالأمل ، وأن الأجل معرَّض أن يأتي في كلِّ ساعة تمرُّ على الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ، فينبغي له أن لا يسوِّفَ الواجبات المترتِّبة عليه ، وأن ينفِّذها بحسب أولويتها.

والأملُ ملهاةٌ يباعد الإنسان عن الواقع في كثير من الأحيان ، ويجعله يتباطأ في أداء ما يجب عليه.

وقد جاء القرآن الكريم بما يوضِّح هذا المعنى ، فقال تعالى في حق الكافرين : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر] .

فالحديث تنبيه إلى عدم الاغترار بالأمل ، وإلى الجد والمبادرة ، فهو تأكيد للمعنى الوارد في الأحاديث السابقة ، وتحذير من الإخلاد إلى التسويف الذي هو نتيجة لطول الأمل .

وقد كان هذا المعنى واضحاً في أذهان الصحابة ، ولهم في ذلك أقوال؛ منها : قول ابن عمر رضي الله عنهما :

«إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخُذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[١] .

كما فهم التابعون ذلك أيضاً ، حتى قال حيلان بن فروة رحمه الله : «وجدتُ التسويف جنداً من جنود إبليس ، قد أهلك خلقاً من خلق الله كثيراً»[٢] .

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

(٢) حلية الأولياء: ٦/ ٥٥.

وقد تحوَّل هذا الفهم لدى السلف إلى صور من التطبيق الواقعي ، حريّة بالتأمُّل والاستفادة منها .

قال أبو مسلم الخولاني : «لو قيل لي : إنَّ جهنم تسعر ، ما استطعت أن أزيد في عملي»[1] .

وقال أبو عوانة : «لو قيل لمنصور بن زاذان : إنك ميت اليوم أو غداً ، ما كان عنده من مزيد»[2] .

وقال أبو حازم سلمة بن دينار : «انظر الذي تحبُّ أن يكون معك في الآخرة فقدِّمه اليوم ، وانظر الذي تكره أن يكون معك ثَمَّ فاتركه اليوم»[3] .

وبهذا الفهم وبهذا العمل عاش السلف الصالح في ظلال تطبيقهم للسنة المطهرة ، والتزامهم بتعاليم الرسول الكريم ﷺ .

* * *

ونعود إلى الموضوع الذي نحن بصدده ، وهو المبادرة ، فما هي المدة التي تدخل تحت هذه الكلمة؟ .

فقد رأينا فهم كثير من السلف على أنها تعني الفور ،

---

(١) حلية الأولياء : ٢/ ١٢٤ .
(٢) المصدر السابق : ٣/ ٥٨ .
(٣) المصدر السابق : ٣/ ٢٣٨ .

ولهذا كانت جاهزيتهم واستعدادهم للموت كاملاً .

ولكن هل هذا يتناول كل القضايا؟ .

والجواب على ذلك: أن هذا الاستعداد أمر مطلوب ، ولكن ليس كل الناس قادرين على الارتقاء لهذا المستوى ، والإسلام دين واقعي ، لا يريد الحرج للناس ، ولهذا رأيناه في أمر الوصية يعطي فرصة يومين أو ثلاثاً حتى لا يشقَّ على الناس .

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(ما حقُّ امرئٍ مسلم له شيء يوصي فيه ، يبيت ليلتين إلا وصيته مكتوبة عنده)**[1] .

والمراد بالوصية تدوين الحقوق المادية التي للإنسان أو عليه ، حتى إذا فاجأه الموت ، أمكن الرجوع إليها ، وأداء الحقوق إلى أصحابها .

ولسنا هنا في صدد مناقشة أمر الوصية ، ولكن المراد الاستفادة من المدة التي حدَّدها الحديث لهذا الغرض .

ويمكن قياس بقية الحقوق مادية كانت أو معنوية على الوصية حيث تتاح فرصة يومين أو ثلاثة كما في رواية مسلم ، لتدارك وفاء هذه الحقوق ، أو تسجيلها والإشهاد عليها .

(١) الحديث متفق عليه (خ ٢٧٣٨ ، م١٦٢٧).



أمَّا ما يتعلق بحقوق الله تعالى فينبغي أن يظل على الأصل ، وهو المبادرة بالفور ، فلا يؤجل التوبة من الذنب ، ولا يؤجل أداء الفرائض . .

جعلنا الله وإياكم ممَّن امتثل أمره تعالى في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] إنه سميع مجيب.

* * *



اغتنــام الفــرص

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يَعِظُه:

(اغتنم خمساً قبل خمس:

شبابك قبل هرمك.

وصحتك قبل سقمك.

وغناك قبل فقرك.

وفراغك قبل شغلك.

وحياتك قبل موتك)[١].

هذا الحديث من جوامع الكَلِم، حيث جمع في كلمات قليلة كلَّ الحالات التي يتقلَّب فيها الإنسان؛ وهي عشر:

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٧٨٤٦)، وقال الذهبي: على شرطهما.



خمس منها يكون قادراً فيها على العمل والعطاء ، وهي: الحياة ، والشباب ، والصحة ، والغنى ، والفراغ.

فليبذل جهده أن يستفيد منها حال وجودها قبل أن تفارقه ، ويصبح غير قادر على استعادتها.

وقد أكَّد حديث البخاري على ثنتين منها ؛ وهو قوله ﷺ: (**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**)[1].

والمعنى: أن من لم يستفد منهما ، فقد غبن؛ لأنَّه تنازل عنهما دون مقابل.

إنَّ الأيام ماضية في سبيلها ، لا يقدر على إيقافها أحد ، وهي تحمل في طياتها الحالات الخمس التي سبق ذكرها ، والتي يمكن العمل فيها والإفادة منها؛ فإذا غفل الإنسان عنها ، تجاوزته ولم يعد قادراً على استعادة ما فات.

وفي هذا الصَّدد ، جاء التَّوجيه النبوي الكريم بشأن الحج ، في تعجيله إذا وُجدت الاستطاعة ، فقال ﷺ: (**من أراد الحجَّ فليتعجَّل ، فإنَّه قد يمرض المريض ، وتضلُّ الضالَّةُ ، وتعرض الحاجة**)[2].

---

(١) صحيح البخاري (٦٤١٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٨٨٣) ؛ وأبو داود (١٠٢١).



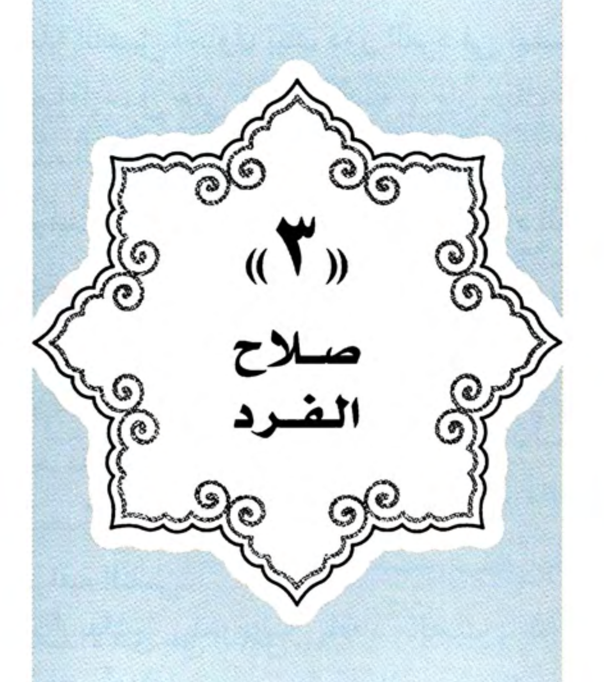
وفي الحديث الآخر: (**حجُّوا قبل أن لا تحجُّوا**)[١].

والرسول ﷺ عندما يتحدَّث عن الحجِّ، إنَّما هو مثل يضربه للواجبات الكثيرة الأخرى المطلوبة من المسلم التي لا يَحْسُنُ التهاون بها خوفاً من حصول ما يمنع أداءها.

* * *

---

(١) رواه الدارقطني (٢٧٩٥)؛ والحاكم (١٦٤٦)؛ والبيهقي في السنن الكبرى (٨٦٩٨).


(٣)
صلاح
الفرد



تمهيد



في هذا الفصل أحاول بيان دور الفرد في نهضة الأمة ، وكيف أنَّه إذا عمل على صلاح نفسه ، فإنَّ ذلك جهدٌ مهمٌّ في بناء هذه النهضة .

وقد رأيتُ أنَّ العناصر التي ينبغي على الفرد العمل على تغطيتها حتى يصل إلى الصلاح المطلوب ؛ هي :

١ ـ دور الفطرة وإعمال العقل .
٢ ـ الالتزام بالأوامر والبعد عن النواهي .
٣ ـ معرفة الشرِّ والجاهلية .
٤ ـ الحذرُ من الشيطان .
٥ ـ مراقبة النفس .
٦ ـ كفُّ الأذى عن الناس .
٧ ـ محاسبةُ النَّفْس .

هذا وأرجو أن أكون قد وفِّقتُ في جمع أهمِّ العناصر التي تؤدِّي هذا الغرض .

* * *



الفَصْلُ الأَوَّل



الفطرة والعقل هما البوصلة



من رحمة الله تعالى بعباده: أنَّه فطرهم على التفريق بين الخير والشر، وبين الحسن والقبيح.

وفطرهم على استحسان الخير والجمال.

كما فطرهم على استقباح أضدادها من الشرِّ والقُبح.

وقد أيَّدَ الفطرة بالعقل.. فالتقى العقل مع الفطرة في هذا الشأن الخطير؛ شأن التفريق بين ما هو خير واستحسانه، وبين ما هو شر واستقباحه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«إنَّ الله ـ سبحانه ـ فطر عباده على استحسان الصدق، والعدل، والعفة، والإحسان... وفطرهم على استقباح أضدادها.

ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم: كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم.

وكنسبة رائحة المسك ، ورائحة النَّتن إلى مشامِّهم.

وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلى أسماعهم.

وكذلك كلُّ ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة ، فيفرِّقون بين طيبه وخبيثه ، ونافعه وضارِّه»[1].

* * *

وهذه مسلَّمة من المسلَّمات لم يختلف الناس عليها.

على أن العقل قد يضعف بعامل البيئة؛ أو بسيطرة الموروثات الجاهلية القائمة على الخرافات والأوهام . . . وكذلك الفطرة قد تتأثَّر بذلك . .

ولهذا كان من مهمات الرسل إيقاظ العقل أولاً ، ثمَّ إزالة الرَّان عن الفطرة ، وبعد ذلك يمكن للرسول أن يؤدي مهمَّته.

ومن هنا كثر في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . . . فكان من المهم إيقاظ العقل.

* * *

(١) مدارج السالكين: ١/ ٢٣٠ ، بتحقيق: الفقي ، دار الكتاب العربي - بيروت.



الفَصْلُ الثَّاني



في ظــلال الأمــر والنهــي



رأينا في الفصل السابق: كيف أن العقل قد يُغيَّب ، بعامل البيئة الجاهلة ، عندما تسيطر الخرافات الأوهام . . فتصبح الموروثات ـ مهما كانت تافهة ـ حقائق ثابتة غير خاضعة لمناقشة العقل . .

فعَبَدَ بعضُ الناس الأحجار .

وعَبَدَ بعضُهم الأبقار والحيوانات الأخرى .

وعَبَدَ بعضهم بعض مظاهر الطبيعة .

وعَبَدَ بعضهم الآلهة المتعددة . .

وعاش كثيرون في ظلِّ هيمنة رجال الدين القائمة على الدَّجَل والتمويه . .

وتجد بين عُبَّادِ هذه الأشياء علماء ومثقفين وساسة . .



وسبب ذلك ـ كما قلتُ ـ هو أنَّهم عطَّلوا عقولهم، ورأوا في هذه الموروثات شيئاً مقدَّساً أكبر من أن يخضع للعقل.

بل صرَّح بعض رجال هذه الأديان بقوله: إذا أردت أن تؤمن، فدعْ عقلَك جانباً وائتِ معي.

وعامة أتباع أمثال تلك الأديان غيَّبوا عقولهم تماماً، وأسلموا قيادها لكهنة تلك الأديان..

وفي مثل هذه الأجواء بُعث سيدنا محمد ﷺ؛ فكانت مهمتُه شاقَّةً، وكان العبء ثقيلاً.. فدعا إلى تحرير العقول من الأوهام والترَّهات.. حتى يزيل العوائق بينها وبين الإيمان..

وحينما يتحرَّر العقل ترجع إليه خاصيته الفعَّالة في التفريق بين الخير وبين الشرِّ..

وبما أن عقول المؤمنين ليست في مستوى واحد، والتحرر من الموروثات لا يكون دفعة واحدة.. وقد قال ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه بعد إسلامه بمدة طويلة: (**إنَّك امرؤ فيك جاهلية**) قال أبو ذر: على حين ساعتي من كبر السِّنِّ يا رسول الله؟ قال: (**نعم**)[1].

(١) رواه البخاري (٦٠٥٠)؛ ومسلم (١٦٦١)، وكان هذا عندما عيَّر أبو ذر أحد الصحابة بأمِّه.



. . لما كان الأمر كذلك كان لابدَّ من أن يكون المرجع في قيادة المجتمع إلى «الأمر» و«النهي» وهذا لا يعني إبطال دور العقل ، وإنَّما الأخذ بيده ومساعدته على السَّير في طريق الحقِّ ، مهتدياً بدلائل البيان النبويِّ الكريم .

وهكذا كان «الأمر» و«النهي» ـ سواء أكان في القرآن أم في السُّنَّة ـ هما المؤشر على الخير أو الشر ، وعلى الحسن أو القبح .

وقد كان هذا الأمر واضحاً في ذهن الصحابة بشكل جليٍّ حتَّى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «إذا سمعتَ الله يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ؛ فأرعها سمعك ، فإنَّه خيرٌ يأمر به ، أو شرٌّ ينهى عنه»[١] .

فانظر كيف جعل الخير مرتبطاً بالأمر، وجعل الشر مرتبطاً بالنهي .

وقد تكرَّر من النبيِّ الكريم ﷺ قوله : **(إذا نهيتُكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتُكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم)**[٢] .

وممَّا يلفت النظر في هذا الحديث تقديمه ﷺ النهي على الأمر .

---

(١) تهذيب حلية الأولياء : ١/١١٩ ، نشره المكتب الإسلامي .

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٨)؛ ومسلم (١٣٣٧) .



ذلك: أنَّ النهي يجب العمل به كاملاً ، فكلُّ منهيٍّ عنه يجب اجتنابه، فالنهي يتطلَّب «الترك» ، وترك عمل ما؛ كلُّ إنسان له القدرة عليه ، لأنَّ المطلوب الاجتناب والبُعد . . وهذا شيء لا مشقَّة فيه ولا كلفة. . فعندما يقال لك: لا تفعل كذا. . فمعنى ذلك ترك هذا الأمر . . والترك قضية ميسَّرة.

أما الأمر ، فليس كلُّ إنسان قادراً على فعل المأمور به ، لأنَّه قد يكون في بعض الأحيان فوق طاقته بسبب عجز آني . . أو مرض . .

فالصلاة تتطلَّب الوضوء ، ولكن الوضوء في بعض الأحيان بالنسبة لبعض النَّاس ، يكون غير مقدور عليه . . فينتقل ـ غير القادر ـ إلى ما هو مقدور عليه وهو التيمم.

وإذن: فالنهي يُلتَزَم به كاملاً .

والأمر يؤتى منه بقدر المستطاع .

وهذا من يُسر هذا الدِّين ورفع الحرج فيه .

وممَّا ينبغي على العبد معرفته: أنَّ اللهَ غنيٌّ عن عباده ، فلا طاعتهم تزيد في ملكه ، ولا معصيتهم تنقصه ، وفي الحديث القدسي قوله تعالى:

(يا عبادي! إنَّكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي! لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص من ملكي شيئاً . . إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفِّيكم إياها)[١] .

هكذا (**ثم أوفيكم إياها**) وهذا الوفاء في الحياة الآخرة.

أما في الحياة الدنيا ، فإن «الأمر» و«النهي» إنَّما غايتهما مصلحة الإنسان ونفعه . . وهذا من رحمة الله بعباده . .

وقد قرَّر العلماء ـ نتيجة الاستقراء ـ أنَّ أحكام الله معللة بمصلحة العباد ، ولذلك قالوا: «فحيث وُجِدَت المصلحة فثَـمَّ شرع الله».

ولكن هذه المصلحة إنَّما يقرِّرها العلماء الربانيُّون ، العالمون بالكتاب والسُّنَّة ، وما كان عليه السلف الصالح.

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).



الفَصْلُ الثَّالِثُ



معرفــة الشــر



قال حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

«كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنتُ أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركَني»[1] .

وهــذا اتجــاه منــه ـ رضــي الله عنــه ـ إلــى تــرتيــب الأولويات ، فدفع الشرِّ مقدَّم على تحصيل الخير ، و«درء المفاسد مقدَّم على جلب المنافع» كما تقول القاعدة الأصولية المعروفة .

فالتعرُّف على الشرِّ أمر ضروريٌّ بُغية اجتنابه وعدم الوقوع فيه .

وقد رأينا كيف أن للعقل دوره في معرفة الشرِّ .

وكيف أن «النهي» مؤشِّرٌ آخر على الشرِّ .

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦)؛ ومسلم (١٨٤٧) .



ولكن قد يختلط الشرُّ بالخير ، فيصعب تمييز الشرِّ ، ولذلك كانت معرفة الشرِّ ضروريةً للوقاية منه ، ولتوفير الجهد حتى يكون في دائرة الخير.

وفي كثير من الأحيان يحدث أننا لا نقدِّر «الخير» حقَّ قدره، لأنَّا لا نعرف خطر الشرِّ المترتِّب على فقدان ذلك الخير.

وهذا ما أشار إليه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال:

«إنما تُنْقَضُ عُرى الإسلام عُروةً عروةً؛ إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»[١].

إنَّ الذين عاشوا الجاهلية ، وانتقلوا إلى الإسلام ، هم أقدر على معرفة قيمة الإسلام ، ممَّن أتى بعدهم ممَّن نشأ فيه ، لأنَّهم يعرفون كم كانت ظلمة الجاهلية التي كشفها الإسلام بنوره ، وكم كان الشرُّ مستطيراً فيها.

إنَّ معرفتهم بالشر الذي كانوا فيه يجعلهم أكثر تمسُّكاً بالإسلام ، وأكثر إقامة لحدوده.

يقول الإمام ابن القيم تعليقاً على كلمة عمر رضي الله عنه:

«كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفاصيله ، وأبوابه

(١) مفتاح دار السعادة ، لابن القيم: ٢/ ٢٨٨.



وطرقه، وأشدَّ الناس رغبةً فيه، ومحبةً له، وجهاداً لأعدائه، وتكلُّماً بأعلامه، وتحذيراً من خلافه، لكمال علمهم بضده.

فجاءهم الإسلامُ ، كلُّ خصلة منه مضادةٌ لكلِّ خصلة مما كانوا عليه، فازدادوا له معرفة وحبّاً ، بمعرفتهم بضدِّه.

وذلك بمنزلة من كان في خطر شديد وضيق ومرض ، وفقر وخوف ووحشة ، فقيَّض الله له من نقله منه إلى فضاء وسَعة وأمن وعافية ، وغنًى وبهجة ومسرَّة ، فإنَّه يزداد سروره . . بما نقل إليه بحسب معرفته بما كان فيه.

وليس حال هذا ، كمن ولد في الأمن والعافية ، والغنى والسرور ، فإنَّه لم يشعر بغير ما هو فيه . . فربَّما ظنَّ أن كثيراً من أسباب الهلاك والعطب تُفضي به إلى السلامة والأمن . . فيكون هلاكه على يدي نفسه وهو لا يشعر.

وما أكثر هذا الضرب من الناس! .

فإذا عرف الضِّدَّين . . وعرف أسباب الهلاك على التفصيل ، كان أحرى أن تدوم له النعمة . . وفي مثل هذا قال القائل:

عرفتُ الشَّرَّ لا للشرِّ لكن لتوقِّيه

ومن لا يعرفِ الشرَّ من النَّاس يقعْ فيه



وهذه حال المؤمن ، يكون فطناً حاذقاً ، أعرَف الناس بالشرِّ ، وأبعدهم منه ، فإذا تكلَّم في الشرِّ وأسبابه ظننته من شرِّ الناس ، فإذا خالطتَه وعرفتَ طويَّتـه ، رأيتَه من أبرِّ النَّاس»[١] .

وليس المراد أن يقع الإنسان بالشر ويزايله حتى يعرفه ، ثم يحترز منه . . وإنما المراد ، ألا يكون جاهلاً به ، وأن يكون عارفاً بضرره وآثاره ، مثله في ذلك مثل الطبيب الذي عرف علم الأمراض . . فهو أعلم بها من المرضى أنفسهم ، وهو بالتالي أقدر على الوقاية منها .

* * *

وقد سلك القرآن الكريم في بعض آياته مسلك التعريف بالشرِّ والتحذير منه .

ففي واحد من الخطابات الواردة في القرآن الكريم للنبيِّ ﷺ جاء قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١] .

ثم جاء في الآية بعد ذلك تعداد أمور من الشرِّ ؛ كالشرك ،

(١) مفتاح دار السعادة ، لابن القيم : ٢/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .



وعقوق الوالدين ، وقتل الأولاد من إملاق ، وارتكاب الفواحش ظاهرة أو باطنة. . فكلُّ هذه الأشياء وغيرها مما ورد في هذه الآية وما بعدها . . ممَّا حرمه الله . . أي أنَّه فعله معصية ، وأنَّه من الشرِّ الذي عرَّفنا الله به وحذَّرنا منه .

ولما لهذا التنبيه من خطر ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : «من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه؛ فليقرأ هؤلاء الآيات : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ. . . ﴾»[1] .

إنَّ معرفة الشرِّ ضرورية للحذر من الوقوع فيه ، وأخذ الحيطة في هذا الأمر ممَّا يدعو إليه الإسلام ويحثُّ عليه . .

وكثير من أحاديثه ﷺ تدخل في إطار التعريف بالشرِّ . . ومن ذلك :

قوله ﷺ : (**اجتنبوا السبع الموبقات . . .**)[2] .

وقوله ﷺ : (**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . . .**)[3] .

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٠٧٠).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦)؛ ومسلم (٨٩).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)؛ ومسلم (٨٧).



الفَصْلُ الرَّابِعُ



الحَـذَر من الشيطـان



قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾ [فاطر].

والغَرور: هو الشيطان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

والآية الكريمة بيان لحقيقة ثابتة، يرشدنا إليها علَّام الغيوب، وهي: أنَّ الشيطان عدوٌّ للإنسان، وغايته التي يسعى إليها أن يجعله من أصحاب السعير.

ولما كان الأمر كذلك، فإنَّ الله يأمرنا أن نكون في عداوة له، حذرين من كلِّ مسالكه ومداخله، حتَّى لا نجعل له على أنفسنا سبيلاً.

فالشيطان داع للشرِّ، صارف عن الخير.. فمن أراد الابتعاد عن الشرِّ فعليه أن يحذر الشيطان كلية..



قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١].

والفحشاء والمنكر.. هما بعض الساحات في ميدان الشرِّ الكبير الذي يسعى الشيطان إلى إيصال الناس إليه.

على أن قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ مُشْعِرٌ بأنَّ الشيطان لا ينقل الإنسان دفعة واحدة إلى الشرِّ، وإنَّما هي الخطوة بعد الخطوة.. والخطوة الثانية أطول من الأولى.. وهكذا حتى يجد الإنسان نفسه وقد ألفَ الشرَّ، وصار له عادة، وعندها يكون الشيطان قد وصل إلى بُغيته.

يقول الإمام ابن القيم:

«دافعِ الخطْرةَ [التي تخطر ببالك من الشر].

فإن لم تفعل، صارت فكرة، فدافعِ الفكرة.

فإن لم تفعل، صارت شهوة، فحارِبْها.

فإن لم تفعل، صارت عزيمة وهمَّة.

فإن لم تفعل، صارت فعلاً.

فإن لم تتداركْه بضدِّه صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها»[1].

---

(١) الفوائد، للإمام ابن القيم، ص ٦٥.



إنَّها خطوات . . ولكن غايتها هي الهدف الكبير للشيطان ، هذا الهدف الذي ذكرتْه الآية الكريمة ـ السابق ذكرها ـ بقولها : ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] .

ولِمَا للشيطان من خطر على الإنسان فقد جاء الحديث عنه مطوَّلاً في كثير من الآيات الكريمة ، مبينة مداخله ومكايده وأعوانه ، حتى يحذره الإنسان .

وقد تنبَّه علماء هذه الأمة ـ رحمهم الله ـ إلى ضرورة بيان هذا الموضوع وشرحه للناس ، فألَّفوا الكتب في ذلك[1] ، وألقوا الدروس والمواعظ . . ونصحوا وحذَّروا . .

ومن ذلك ما بيَّنه الإمام ابن القيم في شأن تدرُّج الشيطان

---

(١) من ذلك :
ـ رسالة للحارث المحاسبي بعنوان : **شرح المعرفة وبذل النصيحة** ، نشرتها دار القلم بدمشق .
ـ كتاب : **إحياء علوم الدين** ، للغزالي ، في مواطن كثيرة منه .
ـ كتاب : **تلبيس إبليس** ، لابن الجوزي .
ـ كتاب : **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان** ، لابن قيم الجوزية ، وقد يسَّر الله لي تهذيب هذا الكتاب وطُبع في المكتب الإسلامي تحت عنوان : البيان في مصايد الشيطان .

وتنازله إلى الدرجة الأدنى إن لم يستطع الوصول بمن وقع في شباكه إلى الدرجة التي فوقها.

قال ـ رحمه الله ـ:

«إن الله ـ سبحانه ـ بحكمته، سلَّط على العبد عدوّاً عالماً بطرق هلاكه.. خبيراً بها، حريصاً عليها، لا يفتر عنه يقظة ولا مناماً، ولا بدَّ له من واحدة من ستٍّ ينالها منه:

إحداها ـ وهي غاية مراده ـ: أن يحولَ بينه وبين العلم والإيمان، فيلقيه في **الكفر**، فإذا ظفر بذلك، فرغ منه واستراح.

فإن فاتَتْه هذه، وهُدي للإسلام، حرص على تلو الكفر، وهي **البدعة** ـ وهي أحبُّ إليه من المعصية، فإنَّ المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها ـ لأنَّ صاحبها يرى أنه على هدى.

وفي بعض الآثار، يقول إبليس: أهلكتُ بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار، وبـ«لا إلٰه إلا الله»، فلما رأيتُ ذلك، بثثتُ فيهم الأهواءَ، فهم يذنبون ولا يتوبون، لأنَّهم يَحسبون أنهم يُحسنون صنعاً.

فإذا ظفر منه بهذه صيَّره من رعاته وأمرائه.

فإن أعجزتْه ألقاه في الثالثة، وهي **الكبائر**.

فإن أعجزتـه ألقاه في اللمم ، وهي الرابعة ، وهي الصغائر .

فإن أعجزتْه ، شغله **بالعمل المفضول** عمَّا هو أفضل منه ، وهي الخامسة .

فإن أعجزه ذلك صار إلى السادسة ، وهي **تسليط حزبه عليه** يؤذونه . . ليشغل قلبه عن العلم والإرادة وسائر أعماله»[١] .

وهذه الأمور هي بعض ما توعَّد به الشيطان ، كما جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف] .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : «خطَّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطّاً ثم قال : (**هذا سبيل الله**) ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه ، وعن شماله ، ثم قال : (**هذه سُبل ، على كلِّ سبيل منها شيطان يدعو إليه**) ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٥٣]»[٢] .

والسؤال المطروح : كيف ينجو المسلم من شرِّ الشيطان؟ وهو الموضوع الذي ناقشه ابن القيم ـ بعد كلامه السابق ـ فقال :

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٣٧٢ .

(٢) رواه الدارمي (٢٠٢) .



«فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الأمور ـ السِّتَّة التي سبق ذكرها ـ ، ولا بما يحصِّنه منه؟! فإنه لا ينجو من عدوِّه إلا من عرف طريقه التي يأتيه منها ، وجيشه الذي يستعين به عليه ، وعرف مداخله ومخارجه ، وكيفية محاربته ، وبأي شيء يحاربه ، وبماذا يداوي جراحته ، وبأيِّ شيء يستمدُّ القوة لقتاله ودفعه؟! .

وهذا كلُّه لا يحصل إلا بالعلم ، فالجاهل في غفلة عن هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم .

ولولا أنَّ العلم يكشف عن هذا ، لما نجا من نجا من الشيطان .

فالعلم وثمرته هو الذي تحصل به النجاة»[١] .

وهذا العلم ـ الذي فيه النجاة ـ مبثوث في الآيات القرآنية الكريمة ، كما هو مبثوث في الأحاديث النبوية الشريفة .

يضاف إلى ذلك: ما قام به العلماء من إيضاح وبيان لمصايد الشيطان وطرق غوايته ، وأساليبه الظاهرة والباطنة في إغواء الإنسان وجذبه إلى ساحات الشر . .

فالواجب على المسلم أن يتعلَّم كلَّ ما يتعلَّق بهذا الأمر

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٧٢.



. . مثله في ذلك، مثل مسافر في طريق موحشة، فيها قطَّاع طريق وعقبات. . وأماكن منقطعة لا ماء فيها ولا طعام. .

وهناك خارطة واضحة المعالم ، دقيقة في معلوماتها ، صادقة في معطياتها ، تبيِّن أماكن الخطر في ذلك الطريق ، وترشد إلى مسالك النجاة منها ، الأمر الذي يساعد على وصول المسافر سالماً ، وقد أنهى سفره بيُسر وراحة ، ولم يصادف في طريقه كلَّ تلك الأمور المخيفة. .

أليس من واجب كلِّ إنسان يريد سلوك ذلك الطريق ، أن يحصل على تلك الخارطة مهما غلا ثمنها؟!.

فكيف لا يحصل عليها وهي مبذولة للناس دون مقابل؟!.

واستمع معي إلى الإمام المحاسبي وهو يتحدَّث في هذا الشأن ، قال رحمه الله تعالى:

«واحذر ألاَّ يخدعك إبليسُ بغوائله، ويصرعك بمصارعه، ويوقعك في فخوخه، ويذهب بك بمكره وخدعه.

فإنَّ له مصايد ملاحاً ، وغوائل شهية ، وطريقاً لذيذاً ، يحسبه الجاهل نوراً ويقيناً ، وهو شك وظلمة.

يفتح لك مئة باب من الطاعة ، يريد بذلك أن يدخلك في أدنى منزلة تستغرق عملك.

فإياك ثم إياك ، والحذر الحذر .

فإن قدرتَ أن تتعلَّم خدعه ، كما تتعلَّم حروف القرآن لتحذره فافعل ، فبهذا أمرك الله عز وجل[1] .

فاحذره في طاعتك ، كما تحذره في معصيتك .

واحذر ـ إذا خطر ببالك أمر ، أو دعتْك نفسك إلى شيء ـ فلا تعجل دون المعرفة والعلم ، وارفقْ بنفسك ، وترسَّل[2] ترسُّل العالم ، وسلِ العلماء ، وجالسِ الفقهاء العالمين بالله عز وجل ، وبأمره ونهيه ، حتَّى يدلُّوك على الطريق طريق الله ، ويعرفوك ذلك ، ويدلُّوك على دوائك .

ولا تغتر بطول القيام ، وكثرة الصيام والنوافل الظاهرة بلا معرفة منك بعملك»[3] .

* * *

(١) لعل المحاسبي رحمه الله يشير بهذا إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر : ٦] .

(٢) **الترسُّل**: التمهُّل والتُّـؤَدة .

(٣) شرح المعرفة وبذل النصيحة ، للحارث المحاسبي ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ، نشرته دار القلم بدمشق .



الفصل الخامس



مراقبـة النفـس



للإنسان نفس واحدة ، ولها صفات ، فتسمَّى باعتبار كلٍّ صفة باسم ، وقد ذكرها القرآن بثلاث صفات :

أدناها : الأمَّارة بالسوء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

وأعلى منها : اللوامة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] .

وأعلاها : المطمئنَّة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر] .

* * *

والنفس الأمارة بالسوء هي الغالبة على الناس .

«وهي المذمومة ، التي تأمر بكلٍّ سوء ، وهذا من طبيعتها إلاَّ ما وفقها الله وثبَّتها وأعانها . فما تخلَّص أحد من

شرٍّ نفسه إلا بتوفيق الله له، كما قال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

وقال ﷺ في خطبته: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**»[١].

فالشر كامن في النفس، وهو يوجب سيئات الأعمال، فإن خلَّى الله بين العبد وبين نفسه هلك من شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال.

ومن أعجب أمرها: أنَّها تسحر العقل والقلب، فتأتي إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلِّها، فتخرجه في صورة مذمومة.

وأكثر الخلق صبيان العقول، أطفال الأحلام، لم يصلوا إلى حدِّ الفطام الأول عن العوائد والمألوفات، فضلاً عن البلوغ الذي يميِّز به العاقلُ البالغُ بين خير الخيرين فيؤثره، وبين شر الشَّرَّين فيجتنبه.

---

(١) رواه الترمذي (١١٠٥).



فتُريه ـ هذه النفس ـ الصدقَ مع الله . . في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم ، وأنَّه يعرض نفسه إلى البلاء ، لما لا يطيق . .

وتُريه حقيقةَ الزكاة في صورة مفارقة المال ونقصه ، وخلو اليد منه ، واحتياجه إلى النَّاس ومساواته للفقير . . »[١] .

«وقد أخبر ـ سبحانه ـ أنَّها أمارة بالسوء ، ولم يقل : (آمرة) لكثرة ذلك منها ، وأنَّه عادتها ودأبها ، إلا إذا رحمها الله . .

فإنَّها بذاتها أمارة بالسوء ، لأنَّها خُلِقتْ في الأصل ظالمة جاهلة ، والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربِّها وفاطرها لها ذلك ، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظُلمها وجهلها ، فلم تكن إلا أمارة لموجب الجهل والظلم ، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة»[٢] .

إنَّ النفس الأمارة بالسوء هي مبعث الشهوات ، والشيطان إنما يصطاد أتباعه من تزيين الشهوات لهم . وهذا

---

(١) كتاب : الروح ، لابن القيم ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٦ باختصار ، طبعه المكتب الإسلامي .
(٢) طب القلوب ، لابن القيم ، ص ٨١ ، نشرته دار القلم بدمشق .



ما يفسِّر لنا اقتران النفس بالشيطان في قوله ﷺ: (**اللهم إنا نعوذ بك من شرِّ أنفسنا، ومن شرِّ الشيطان الرجيم وشركه**)[1].

وفي سبيل التعرُّف على عيوب النفس وشرورها، يحسن بنا أن نستفيد من الإمام الغزالي في هذا الموضوع؛ حيث يقول:

«اعلم أنَّ الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصَّره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرتُه نافذةً، لم تخفَ عليه عيوبُه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم.. فمن أراد معرفة ذلك فله أربعة طرق:

الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس.. فيعرفه عيوب نفسه، ويعرفه طرق علاجها، وهذا قد عزَّ في هذا الزمان وجوده.

الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً.. فينصبه رقيباً على نفسه، يلاحظ أحواله، فما كره منها نبَّهه عليه.

قال عمر رضي الله عنه: «رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي».

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٨٣).



الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فإن عين السُّخط تبدي المساويا.

الرابع: أن يخالط النَّاس ، فكلُّ ما رآه مذموماً منهم ، فليطالب نفسه بالابتعاد عنه . . وناهيك بهذا تأديباً ، فلو ترك النَّاسُ كلُّهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدِّب»[1].

* * *

(١) المهذب من إحياء علوم الدين ، أعده صالح أحمد الشامي: ٢/ ٤٥ ـ ٤٦ ، نشرته دار القلم بدمشق.



الفَصْلُ السَّادِسُ



الإمســاك عن الشــرِّ



أن يكون المسلم قد وُفِّقَ لأعمال الخير ، فذلك أمر جميل يُثاب عليه ، ولكنَّه في بعض الأحيان قد يكون غير قادر على فعل شيء من ذلك ، فما هو سبيل النجاة بالنسبة له ولأمثاله؟ .

وقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة لتقرر الجواب على هذا السؤال ، وأكتفي بذكر ثلاثة منها ، وكلُّها في أعلى درجات الصحة ، فهي من المتفق عليه بين الشيخين ؛ البخاري ومسلم .

الأول : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قيل : يا رسول الله ، أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ : (**مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله**) قالوا : ثم من؟ قال :



(مؤمن في شِعب من الشِّعاب ، يتقي الله ، ويدع الناس من شره)[١] .

الثاني : عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال : قال النبيُّ ﷺ : **(على كلِّ مسلم صدقة)** قالوا : فإن لم يجد؟ قال : **(فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدَّق)** قالوا : فإن لم يستطع ، أو لم يفعل؟ قال : **(فيعين ذا الحاجة الملهوف)** قالوا : فإن لم يفعل؟ قال : **(فليأمر بالخير ، أو قال : بالمعروف)** قالوا : فإن لم يفعل؟ قال : **(فليمسك عن الشرِّ ، فإنَّه له صدقة)**[٢] .

الثالث : عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه ، قال : سألتُ النبيَّ ﷺ : أيُّ العمل أفضل؟ قال : **(إيمان بالله ، وجهاد في سبيله)** قلتُ : فأيُّ الرقاب أفضل؟ قال : **(أغلاها ثمناً ، وأنفسها عند أهلها)** قلتُ : فإن لم أفعل؟ قال : **(تُعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق)** قال : فإن لم أفعل؟ قال : **(تدع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدَّقُ بها على نفسك)**[٣] .

وهكذا فالحديث الأول يجعل الممسك عن الشرِّ في

---

(١) رواه البخاري (٢٧٨٦)؛ ومسلم (١٨٨٨) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٢)؛ ومسلم (١٠٠٨) .

(٣) رواه البخاري (٢٥١٨)؛ ومسلم (٨٤) .



الدرجة الثانية ، بعد أفضل الناس.

وفي الحديثين ـ الثاني والثالث ـ جعله من المتصدِّقين.

وهذا من فضل الله على النَّاس ، إذ جعل الإمساك عن الشَّرِّ فضيلة تصنف ضمن فضائل الأعمال.

ولنتصوَّر أن أصحاب الشرور في مجتمع من المجتمعات قد كفُّوا عن فعل الشرِّ ، وعاش الناس جميعاً في أمن وسلام ، أليس هذا هو المجتمع الفاضل الذي تنشده كلُّ أمة؟!.

إنَّ الامتناع عن الشرِّ ، على الرغم من أنَّه عمل سلبيٌّ لم يقم صاحبه بأيِّ عمل ، ولكن آثاره إيجابية ، حيث ينعم النَّاس بالأمن والاطمئنان والسلام.



الفَصْلُ السَّابِعُ



مُحَاسَبَةُ النَّفس



إنَّ ما سبق الحديثُ عنه في الفصول السابقة ، كانت الغاية منه الوصول إلى سلامة الأعمال الصادرة عن الفرد المسلم لتشكّل بمجموعها فرداً صالحاً .

وهذا غير كافٍ ما لم تخضع هذه التصرُّفات للفحص للتأكُّد من صحتها ، وهذا لا يكون إلاَّ بمراجعة دقيقة من صاحب العمل ـ وهو أدرى بما قدَّم ـ يتفحَّص فيها ما صدر عنه ، وهذا ما سمَّاه العلماء : محاسبة النفس .

وقد جاء الأمر بهذه المحاسبة في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨] .

جاءت الآية الكريمة بالأمر بـ «**التقوى**» أولاً ، وهي الاستقامة والقيام بالأعمال وفق ما شرع الله تعالى ، ثم جاء الأمرُ الآخر ـ مؤكداً بلام الأمر ـ بالنظر في الأعمال الصادرة

عن الإنسان للتأكُّد من سلامتها وصلاحيتها للعَرْض على الله تعالى يوم القيامة.

وقد حثَّ العلماء على ضرورة القيام بهذه المحاسبة لما لها من أثَرٍ في تصحيح العمل، وتدارك للنقص.

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسِبوا أنفسَكم قبلَ أن تُحاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر»[1].

وقال الحسنُ البصري رحمه الله: «المؤمنُ قَوَّام على نفسه يحاسبها لله، وإنَّما خفَّ الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنَّما شقَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة».

وقد فصَّل الإمامُ الغزاليُّ رحمه الله بعضَ التفصيل في بيان هذه المحاسبة، فقال: «ينبغي أن يكون للعبد في آخر النهار ساعةٌ يُطالب فيها النفس ويُحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها.

ومعنى المحاسبة: أن ينظر في رأس المال، وفي الربح والخسران، ليتبيَّن له الزيادة من النقصان.

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩).



ورأس مال العبد في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخُسرانه المعاصي ، وموسم هذه التجارة جملة النهار ، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء .

فيحاسبها على الفرائض أولاً ، فإن أدَّاها على وجهها شكر الله تعالى عليه، ورغَّبها في مثلها، وإن فوَّتَها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أدَّاها ناقصة ، كلَّفها الجُبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصيةً اشتغل بعقوبتها ومعاتبتها ، ليستوفيَ بها ما يتدارك به ما فرط ، وليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلَّم به طول نهاره، وليتكفَّل بنفسه من الحساب ما سيتولاَّه غيره في صعيد القيامة .

وهكذا عن نظره ، بل خواطره وأفكاره ، وقيامه وقعوده ، وأكله ونومه . . . »[1] .

هذا بعض ما قاله الإمام الغزالي رحمه الله ، ويصوِّر لنا العلاَّمة سيد قطب رحمه الله عند قوله تعالى : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ما تفتحه هذه الآية الكريمة أمام الأعين والقلوب ، فيقول :

(١) المهذب من إحياء علوم الدين : ٢/ ٤٢٢ .



«﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ وهو تعبير ذو ظلالٍ وإيحاءاتٍ أوسع من ألفاظه، ومجرَّد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحةَ أعماله، بل صفحة حياته، ويحدُّ ببصره في سطورها كلِّها، يتأمَّلها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته، لينظر ماذا قدَّم لغده في هذه الصفحة.

وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف، ومواضع نقص، ومواضع تقصير، مهما يكن قد أسلف من خير، وبذل من جهد؛ فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلاً، ونصيبه من البر ضئيلاً؟! إنَّها لمسة لا ينام بعدها القلب أبداً، ولا يكفُّ عن النظر والتقليب».

تلك هي بعض أقوال السَّلَف رحمهم الله تعالى التي تُلقي الضوء على مكانة «محاسبة النفس» وضرورتها.

فالمسلم الذي يسعى إلى سلامة موقفه يوم العرض الأكبر لا بدَّ له من العمل الجادِّ على التقيُّد وتنفيذ ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾.

وفَّقنا الله لما يحبُّ ويرضى من القول والعمل.





وبعد:

فتلك هي أسباب النجاة في الدنيا ، وفي الآخرة ، حيث لا ينفع مال ولا بنون ، وإنَّما هي أعمال المرء تُحصى له ، ثم يوفَّاها ، كما ورد ذلك في الحديث القدسي: **(يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه)**.







«٤»

المصلحون




تمهيد

كان البحثُ السابق في «صلاح الفرد» .

وفي هذا البحث نتحدَّث عن محاولة إصلاح المجتمع ؛ وهي مهمة العلماء والدعاة إلى الله تعالى .

وهو بحث كبير ليست هذه الرسالة محلاًّ للحديث عنه ، وأكتفي بذكر بعض الخواطر التي أرى أنَّا بحاجة إلى تذكُّرها .

وممَّا يحسن قوله في هذا التمهيد :

إنَّ أي عمل يريد له صاحبه النجاح ، لابد أن يسبقه بالاستطلاع والدراسة والبحث والتصوُّر ، قبل الإقدام على العمل ذاته ، وبمقدار الدقة والاجتهاد في هذه المقدِّمات ، بمقدار ما يكون العمل موفقاً ناجحاً . .

فمهمَّة العالم مهمة جليلة ، وبمقدار ما يعدُّ نفسه لهذه المهمة، وبمقدار ما يعيش واقع الناس ويعرف ما هم بحاجة إليه ؛ بمقدار ما يكون على الطريق الموصل إلى الغاية .

وقد رأيتُ أن أتناول في هذا البحث الأمور التالية :



- القواعد العامة للدعوة إلى الله تعالى.
- نماذج من طرق دعوته ﷺ للنَّاس.
- بيان أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلَّى بها الداعية.

* * *

الفَصْلُ الأَوَّلُ



قواعد عامة في الدعوة



يحسن بنا أن نقف على بعض القواعد العامة في الدعوة إلى الله التي لابدَّ لكلِّ داعية من أخذها بعين الاعتبار، ومنها:

١ ـ **القاعدة الأولى**: نأخذها من قوله تعالى:
﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].
والآية الكريمة هنا توجِّه إلى أمور:

ـ **الحكمة**: وهي وضع الشيء في مكانه المناسب، ومنها على سبيل المثال اختيار الزمان والمكان والحالة النفسية إن أمكن لطرح الفكرة والدعوة إليها.

ـ **الموعظة الحسنة**: بالكلمة الطيبة الحسنة، والوجه البشوش، ولين الخطاب.



ـ الجدال بالتي هي أحسن: فليكن المقصود عرض الفكرة دون أن يتحوَّل إلى مشادَّة؛ فحينئذ تفقد المناقشة غايتها، ولا تصل إلى نتيجة.

وقد أكَّد القرآن هذا في آية أخرى، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

كما أن قضية الأمر باللين هي سبيل الدعوات؛ فقد أمر الله بذلك موسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون؛ فقال تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وإذا كان الأمر كذلك فكلُّ إنسان يعرف من نفسه الفظاظة والغلظة فهو إنسان لا يصلح لهذا الميدان؛ قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا وصف للرسول ﷺ في لين معاملته وقوله لمن آمن به، وأنَّه لو كان فظّاً لانفضَّ هؤلاء المؤمنون من حوله..

فهذا الأسلوب من اللِّين والرفق مع المدعوِّين إلى الإيمان هو الطريق الأجدى في الوصول إلى المطلوب.

٢ ـ القاعدة الثانية: نأخذها من قوله تعالى:



﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

قال ابن عباس في تفسيرها: قالوا: يا محمد لتنتهينَّ عن سبِّ آلهتنا، أو لنهجونَّ ربَّك. فنهاهم الله أن يسبُّوا أوثانهم.

وخصوص السبب لا يقيد النصَّ العام للآية الكريمة.

إنَّه مطلوب من الداعية أن يصل إلى قلب مخاطبه، وسَبُّ معبوده أو الإساءة إليه سيكون حاجزاً يمنع الوصول إلى ذلك، والدعوة غايتها عرض خصائص الإسلام التي يمتاز بها، وما أظنُّ أن غضَّ النظر عن سباب آلهة المدعوين إلا وسيلة تقرِّب من الغاية المرجوَّة..

ومع ذلك فإنَّ ما توجَّه إليه الآية الكريمة يدخل تحت القاعدة الأولى التي أمرت بالخطاب بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣ ـ القاعدة الثالثة: البدء بعرض الأوليات:

فأوامر الإسلام كثيرة وخصائصه كثيرة، ولا يمكن عرضها دفعة واحدة، بل على الداعية ـ وفقاً لقاعدة الحكمة ـ أن يختار الأهم فالأهم:

وهذه القاعدة: نستنتجها من نزول القرآن الكريم والأحكام التي نزلت أولاً، والأحكام التي تأخر نزولها.



تقول عائشة رضي الله عنها: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب النَّاس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنى أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[١].

وواضح من حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ البدء كان بالعقيدة، والتركيز على المعاد والبعث، وأنَّ نزول الأحكام تأخَّر كثيراً، فسورة البقرة وسورة النساء إنَّما كان نزولهما بالمدينة وهما سورتان مليئتان بالأحكام.

فعلى الداعية أن يستفيد من هذا الأسلوب الربانيِّ؛ فلا يكن حديثه عن الأحكام؛ فعندما تقول للمدعو: الزنى حرام، وشرب الخمر حرام، ولبس خاتم الذهب حرام.. وتبدأ بقائمة الأحكام، وينظر المدعو إلى نفسه وهذه الأمور أساسيات في حياته؛ فلن يكون هناك ما يشجِّعه. أما عندما

---

(١) رواه البخاري (٤٩٩٣).



تدخل إلى قلبه من خلال الإيمان فيسهل عليه بعد ذلك أمر التغيير ، بل سيسعى هو للسُّؤال عمَّا يحلُّ وما يحرم . .

وهذا المعنى الذي استنتجناه من حديث عائشة يصرح به حديث ابن عباس المتفق عليه : قال رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن :

(إنَّك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتَهم فادعُهم إلى :

ـ أن يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله .

ـ فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أنَّ الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كلِّ يوم وليلة .

ـ فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أنَّ الله قد فرض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم .

ـ فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإياك وكرائم أموالهم ، واتَّقِ دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب) .

وفي رواية لهما : **(فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم . . .)** الحديث[١] .

وهنا يحقُّ لنا أن نعتذر إلى الفقهاء إذا طرحنا اجتهاداتهم جانباً وهم يتحدَّثون عن الإلزامات التي ألزموا بها من أسلم

---

(١) رواه البخاري (١٤٩٦)؛ ومسلم (١٩).



من لحظة إسلامه؛ فهو إن أسلم قبل غروب الشمس وجب عليه صلاة الظهر والعصر، وإذا كان له مال بدأ الحول، وإذا كان موسراً وجب عليه الحجُّ.. وهكذا في بنيان تلك الواجبات ممَّا يثقل الكاهل.. ولو أُعلِمَ ذلك المسلم الجديد بذلك السيل من الإلزامات لراجع حساب إسلامه..

وهذا ما يتعارض مع نصِّ الحديث المتفق عليه.. الذي جعل إخبار المسلم بواجباته على مراحل.

بل إنَّ بعض ألفاظ الحديث في غير «الصحيحين» قالت: (**فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا لانتْ بها ألسنتُهم فأخبرهم أنَّ الله فرض عليهم خمس صلوات...**).

إنَّ الدواء الناجع الذي يصفه طبيب متمرِّس مختصٌّ، لو أخذ دفعة واحدة استعجالاً للشفاء ربما قتل المريض..

ومنهج الله تعالى وتعاليم رسوله ﷺ مقدمة على اجتهاد الفقهاء؛ وهم معذورون؛ فكثيراً ما شُغل بعضهم بالجزئيات فغفل عن الكليات.

* * *



الفَصْلُ الثَّانِي



طريقة النبيِّ ﷺ في الدعوة

هذه نماذج من دعوته ﷺ النَّاس إلى الإسلام وهي نماذج قليلة ، لم يتح الوقت تتبع السيرة واستقراءها لذكر عدد أكبر منها ، ولكل منها دلالته الخاصة؛ تبين حكمته ﷺ في علاج كلِّ إنسان بما يناسبه :

١ـ جاء حُصين والد عمران إلى النبيِّ ﷺ فجلس إليه ، فقال رسول الله ﷺ : (**يا حصين كم تعبد من الآلهة؟**) قال : سبعةً في الأرض ، وواحداً في السماء . قال ﷺ : (**فإذا أصابك الضرُّ فمن تدعو؟**) قال : الذي في السماء . . فلم يقم حُصين حتى أسلم .

إنَّه ﷺ أزاح عن عقله حجاب البيئة الموروث ، ووضعه أمام سؤال جعله يقول لنفسه : إذا كنتُ وقت الضرِّ والشدة أتجه إلى الذي في السماء؛ فما فائدة الآلهة التي في الأرض؟! وهكذا أجاب نفسه بنفسه ، وحجَّ نفسه بنفسه . .



٢ـ كثيراً ما يكون للدعاية المعادية أثرها ، بحيث تصبح قادرة على غمط الحقائق وجحودها ، وربما إسدال الستار عليها .

فإذا أمكن إزاحة ستار الدعاية المغرضة والإعلام الكاذب : ظهر الحقُّ أبلج واضحاً .

أخرج الشيخان : من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : بعث النبيُّ ﷺ خيلاً قِبَل نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له : ثمامة بن أثال ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبيُّ ﷺ فقال : **(ما عندك يا ثمامة؟)** فقال : عندي خير يا محمد ، إنْ تقتلني تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنتَ تريد المال فسل منه ما شئت .

فتركه حتى كان الغد ، ثم قال له : **(ما عندك يا ثمامة؟)** قال : ما قلت لك : إنْ تنعم تنعم على شاكر .

فتركه حتى كان بعد الغد ، فقال : **(ما عندك يا ثمامة؟)** فقال : عندي ما قلت لك ، فقال : **(أطلقوا ثمامة)** .

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . يا محمد ، والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إليَّ .

والله ما كان من دينٍ أبغضَ إليَّ من دينك ، فأصبح دينُك أحبَّ الدِّين إليَّ . والله ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدك ، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ . وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة؛ فماذا ترى؟ .

فبشَّره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر .

فلما قدم مكة ، قال له قائل : صَبَوْتَ . قال : لا ، ولكن أسلمتُ مع محمد رسول الله ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتَّى يأذنَ فيها النبيُّ ﷺ[1] .

ما الذي تغيَّر في شخصية ثمامة؟ إنَّ حكمة النبيِّ ﷺ الذي احتجزه ثلاثة أيام جعلتْه يرى شخصية الرسول ﷺ بين أصحابه ، وتعامله معهم ، فوقف على صورة من الواقع . . فزاح عن نفسه ما كان فيها من بُغضٍ وكُرهٍ له ﷺ ولدينه ولبلده . . فلما منَّ ﷺ عليه ، أعلن إسلامه حبّاً وإيماناً نتيجة ما رأى وما سمع .

وشبيه بهذا ما حصل للطُّفيل بن عمرو الدَّوْسيِّ الذي حشى أذنيه قطناً حتى لا يسمع رسول الله ﷺ، ولكن أراد الله

---

(١) رواه البخاري (٤٣٧٢)؛ ومسلم (١٧٦٤).



له أن يلتقي بالرسول ﷺ فيسمع منه فيسلم ، وكان رجلاً شريفاً شاعراً[1].

٣ـ النموذج الثالث نعرضه من خلال قصة إسلام ضماد:

أخرج مسلم: عن ابن عباس: أنَّ ضماداً قدم مكة ، وكان من أزد شنوءة ، وكان يرقي من هذه الريح ، فسمع سفهاء مكة يقولون: إنَّ محمداً مجنون ، فقال: لو أنِّي رأيتُ هذا الرجل لعلَّ الله يشفيه على يديَّ. قال: فلقيه. فقال: يا محمد ، إني أرقي من هذه الريح ، وإن الله يشفي على يدي من شاء ، فهل لك؟.

فقال رسول الله ﷺ: (**إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهدِ الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله: أما بعد**).

قال: فقال: أعدْ عليَّ كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات.

قال: فقال: لقد سمعتُ قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء؛ فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد

---

(١) انظر كتاب: من معين السيرة ، للمؤلف ، ص ٩٠.



بلغن ناعوس البحر ، قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. فبايعه[١].

إنَّ هذه المقدمة التي قالها النبيُّ ﷺ فيها قضية الإيمان بالله ، وأنَّ الأمور بيده ، فلم يحتج الرجل أكثر من أن وضحت له هذه الحقيقة حتى آمن ، وليته ترك رسول الله ﷺ يتمُّ حديثه.

* * *

(١) رواه مسلم (٨٦٨).



الفصل الثالث




صفات الداعية

نتحدَّث في هذا الفصل عن بعض الصفات التي ينبغي أن تتوفَّر في الداعية ليكون أهلاً لأداء هذا الواجب على الوجه الذي يؤتي ثماره.

وقبل التوجُّه إلى ذلك أحبُّ أن ألفِتَ النظر إلى أمرين ينبغي استقرارهما في الفكر ونحن نعالج هذا الجانب من الموضوع:

الأمر الأول: أنَّ هذه الدعوة تحمل بذاتها قوة نفاذها، فهي فاعلة بذاتها، قادرة على العمل في الظروف الصعبة بل وغير المناسبة.

وأضرب لذلك مثلاً من الواقع: كنتُ في رمضان الماضي في مكة المكرمة، وعن طريق الصُّدفة يسَّر الله اللقاء بشابٍّ سويسريٍّ في مقتبل العمر.. يتكلَّم العربية



بِيُسر ، وبعد حديث ، سألتُه عن قصة إسلامه . . فقال : إنَّه كان في حفلة راقصة، وهناك في ذلك الجو الموبوء بالموبقات التقى بأحد المسلمين المنحرفين ، وعن طريقه ـ وهو الذي لا يعرف عن الإسلام شيئاً ـ كانت بداية الطريق .

أليس هذا الأمر في غاية الغرابة؟! . . مسلم جاهل في مكان للرذيلة . . يكون وجوده سبباً في إسلام إنسان . . وبطبيعة الأمر . . لم يكن في نية المسلم بل لم يَدُرْ في خلده أنه سيكون سبباً في هذا الخير .

إنَّه زمان غير مناسب ، ومكان غير مناسب ، وشخص غير مناسب . .

وهذه الحادثة ليست وحيدة في بابها . . فهناك إنسان آخر أسلم عن طريق لقاء في ميدان الكرة ، وهناك ثالث كان الباعث على إسلامه لقاء في السجن مع مجرمي المخدرات والتزوير . .

كلُّ هذا يدلُّ على قوة هذه الدعوة بذاتها ، وهذا ممَّا يسهِّل مهمة الداعية .

ضرب الزبير رضي الله عنه رجلاً في المعركة ، فشقه باثنتين ، فقيل له : ما أمضى سيفك ، فغضب فقال : هي اليد وليس السيف .

ونحن هنا أمام سيف ماضٍ بحاجة إلى اليد التي تستعمله.

الأمر الثاني: أنَّ هذه الدعوة تبدأ فاعليتها من الحركة، وهذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى إطالة الكلام فيه.

ألـم يقـل الله تعـالـى لنبيـه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر] والقيام منطلق الحركة.

بل إنَّ الحركة أساس في كيان هذه الدعوة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فالآية الكريمة وإن كان أكثر المفسرين على أنها حضٌّ على السفر لتعلُّم الفقه.. ولا شكَّ بأن السفر حركة، إلا أنَّ سيد قطب رحمه الله يذهب إلى ما هو أدقُّ.. فيقول: «إنَّ الحركة هي قوام هذا الدِّين، ومن ثم لا يفقهه إلاَّ الذين يتحرَّكون به، ويجاهدون لتقريره في واقع الناس».

إنَّ الدعوة إلى الله تحتاج إلى سعي وحركة، وما لم تكن كذلك فلن تؤتي ثمارها.

* * *



أما ما ينبغي أن يكون عليه الداعي ؛ فمن ذلك :

١ ـ العلم:

قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨] ، ومن أهم أسباب البصيرة العلم.

فلابدَّ للداعية من صلة دائمة بالقرآن الكريم تلاوة وتفسيراً ، ولابدَّ من دراية بالسُّنَّة والسيرة ، فهذه المعلومات هي المادة التي يعرض الإسلام من خلالها.

٢ ـ التطبيق للإسلام:

قضية التزام الداعية بالإسلام هي الأمر الأهم ، ولقد انتشر الإسلام نتيجة لالتزام المسلمين به وتطبيقهم له أكثر من انتشاره بأي وسيلة أخرى ، كان غير المسلم يرى في سلوك المسلم مثال الصدق والوفاء والاستقامة ، فيكون ذلك دافعاً للسؤال عن دينه ثم التزامه.

وما زالت هذه الطريقة من الدعوة إلى الله تفعل فعلها كلَّما وُجد مسلمون صادقون في مجتمع غير مسلم ، ذلك أنَّ لسان الحال أفصح من لسان المقال.

وقد حذَّر اللهُ مقتَه أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون ،

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف].

٣ ـ الإخلاص:

هذا العمل اسمه الدعوة إلى الله ، والله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ، يقول في الحديث القدسي: (**من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه**).

فهذا العمل غايته رضوان الله تعالى ، وما كان كذلك ينبغي أن يتوفَّر فيه أمران:

ـ أن يخلص من الشوائب.

ـ أن يقدم بأحسن صورة.

ويكون ذلك بالحرص على هداية الناس، والفرح بذلك حينما يحصل، ورؤيته الفضل لمن اهتدى على يد الداعية ، ولا يرى لنفسه أي فضل ، وإنما يحمد الله تعالى أن أجرى هذا الخير على يديه ، وأن يكون في فهمه على طريقة زين العابدين رحمه الله؛ حيث كان إذا جاءه الفقير رحَّب به أيما ترحيب ، وقال: أهلاً بمن يحمل زادنا إلى الآخرة.

إنَّها النظرة الدقيقة في الفقه؛ فالفقير له الفضل لأنَّه

يحمل زادك إلى الآخرة ، ومن اهتدى على يدك له الفضل عليك لما ساقه إليك من الأجر الكبير عند الله تعالى .

وقد سمعتُ والدي رحمه الله يقول: سألتُ الشيخ محمد الهاشمي رحمه الله ، فقلت: يا سيدي ، إنَّا إذا دعونا إنساناً إلى الخير فلم يستجب وجدنا عليه في أنفسنا ؛ فما العمل؟ .

فقال الشيخ الهاشمي رحمه الله : إنَّ من دعوتَه إلى الخير فاستجاب لك فله الفضل عليك مرة ؛ ذلك أنَّه تسبَّب لك في الأجر ، ومن لم يستجب لك فله الفضل عليك مرات لأنَّه ردَّك إلى عبوديتك ، وعرَّفك أنَّه ليس لك من الأمر شيء .

رحمهم الله أولئك الذين فقهوا في دين الله .

فلا بدَّ من الإخلاص في الدعوة إلى الله ، هذا الإخلاص الذي يبعث الحرارة في العمل ، وقديماً قالوا: ليست النائحة كالثكلى .

ولأهمية هذه الصفة فإنِّي أحبُّ أن أذكر مثلاً من الواقع لنتبين الفرق بين النائحة المستأجرة وبين الثكلى ، وبين الدعوة عندما تكون لله ، وعندما تكون عملاً وظيفيّاً .

حدَّثني أخ لنا كان يعمل طبيباً في قَطَر ، قال: صليتُ



العصر يوماً في المسجد المجاور لبيتي كما هي العادة ، والمصلُّون خمسة أو ستة من الطاعنين في السِّنِّ ، وبعد الصلاة انتصب رجل وافد فبدأ يحدِّثنا عن الصلاة وفرضيتها. . قال: فجلست حتى انتهى من حديثه ، فقمتُ إليه فسلَّمتُ عليه بحرارة، ثمَّ دعوتُه لشرب الشاي عندي في البيت، فاعتذر، ولكني أخذتُ بيده فوضعتُها تحت إبطي ـ وصاحبنا الطبيب قد أوتي بسطة في الجسم ـ وسرتُ معه ، فذهب الرجل معي على مَضَضٍ. . وبعد أن قدَّمتُ له الشاي، سألتُه عن فائدة كلمته تلك. . ناس في المسجد هم في الصلاة وجاؤوا لأجل الصلاة . . ما فائدة أن تحدِّثهم عن الصلاة؟ هلاَّ حدثتهم عن واقع المسلمين ، أو عن أمور أخرى ممَّا هم بحاجة إليه ، أو هلاَّ ذهبت إلى الأماكن العامة التي ترك أصحابها الصلاة فحدَّثتَهم عن الصلاة. .

قال: وما زلتُ أضايقه بالأسئلة ، حتى قال: دعنا منك يا رجل، نحن موظفون ، ومطلوب منَّا أن نلقي في كلِّ شهر عدداً من الكلمات في الدعوة إلى الله، فكانت تلك واحدة منها.

وما أظن أن هذه القصة تحتاج إلى تعليق! .

٤ ـ إلمام بالثقافة العامة:

بحيث يكون على إلمام بما يدور من حوادث على

مسرح الأحداث بشكل عام ، وما يخصُّ المسلمين منها بشكل خاص .

يضاف إلى ذلك تتبعه للمستجدات في ميدان العلم والتقنيات .

٥ ـ إلمام عام بشخصية المدعو ومعتقده ومشكلاته ومشكلات بيئته:

وهذا أمر ضروريٌّ يختصر على الداعية الطريق ، ويحدِّد له نقاط الاهتمام .

وهذا ما أرشد إليه الرسول الكريم ﷺ في حديثه السابق عند إرساله معاذاً إلى أهل اليمن فقال : (**إنك ستأتي قوماً أهل كتاب**) فقد حدَّد ﷺ في هذه الجملة طبيعة الجوِّ الذي سيتعامل معه معاذ ، وأنه ليس ـ كما هو الشأن عند العرب المشركين ـ ثم ركَّز له الاهتمام بأمر التوحيد الذي هو مركز الانحراف عندهم . . فقال : (**فادْعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله**) .

وتُراعى الفروق في الدعوة بين الرجل والمرأة؛ فاهتمامات المرأة غير اهتمامات الرجل . .

٦ـ التواضع والبِشْر في شخصية الداعية:

وبهذين الأمرين تُمتلك القلوب . .



وقد حدَّثنا الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله يوم كنَّا طلَّاباً في كلية الشريعة ، وقد رأى فيما يبدو وجوهاً مكفهرَّة ، وأخرى عابسة. . أنَّ من أوليات الداعية أن لا تفارق الابتسامة وجهه ، وأن رجال بعض الكنائس يتعلمون ذلك خلال أشهر أمام المرآة.

أقول: والإسلام يطلب من المسلم أن تكون الابتسامة على وجهه ، جاء في الحديث: (**وتبسُّمك في وجه أخيك صدقة**). وممَّا وُصِفَ به ﷺ: أنَّه كان دائم البِشْر.

٧ـ سعة الأفق والفهم في دين الله بعيداً عن التزمُّت:

وأضرب لذلك أمثلة:

● كنَّا في صلاة المغرب يوماً. . فوقف أحد الدعاة الذين يُشار إليهم في البلد يعظُ النَّاس ، وكان الموضوع حضور صلاة الصبح في المسجد. . وقد أغلظَ الواعظُ في حديثه حتَّى كاد أن يكفِّر من لم يحضر صلاة الفجر في المسجد. . بل قد فهم بعضُ الحاضرين ذلك. . فما أن خرجت من المسجد حتَّى استوقفني جارٌ لي فقال: أنا أصلي الصلوات في المسجد إلا الصبح فإنِّي أصليها في البيت، فإذا كان كلامه صحيحاً، فسوف أترك الصلاة كلَّها ، إذ لا فائدة فيها لمن لم يصلِّ الصبح في المسجد. . وحاولتُ أن أبيِّن له الحكم،

وأنَّ الواعظ قد أخطأ في الأسلوب حتَّى استرضيتُ الرجل وأقنعتُه بالمداومة على صلاته ، وإن تيسَّر له صلاة الفجر في المسجد فهو الأفضل ، وإلا فلا مانع أن يصلي بالبيت .

إنَّ هذا أسلوبٌ منفِّر ولا شكَّ ، نتج عن قلَّة الاطلاع وعدم المعرفة بمخاطبة الناس ، روى أبو داود: عن أبي سعيد، قال: جاءت امرأة إلى النبيِّ ﷺ ونحن عنده ، فقالت: يا رسول الله ، إنَّ زوجي صفوان بن المعطل يضربني إذا صليتُ ، ويفطرني إذا صمتُ، ولا يصلي الفجر حتى تطلع الشمس. قال: وصفوان عنده. فسأله عما قالت.

فقال: يا رسول الله ، أما قولها: يضربني إذا صليتُ ، فإنَّها تقرأ بسورتين، وقد نهيتُها، قال: فقال رسول الله ﷺ: **(لو كانت سورة واحدة لكفت النَّاس)** .

وأما قولها: يفطرني ، فإنَّها تنطلق فتصوم وأنا رجل شابٌّ فلا أصبر، فقال رسول الله ﷺ يومئذ: **(لا تصوم امرأة إلا بإذن زوجها)** .

وأما قولها: إنِّي لا أصلي حتى تطلع الشمس ، فإنَّا أهل بيت قد عرف لنا ذلك ، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس. قال: **(فإذا استيقظتَ فصلِّ)**[(١)] .

---

(١) رواه أبو داود (٢٤٥٩).



لو كان صاحبنا عرف أو قرأ هذا الحديث لغيَّر أسلوبه .

● سمعتُ قصة مُفادها : أنَّ أهل قرية في روسيا ـ وذلك في أواخر الحكم العثماني ـ أرادوا الإسلام ، ولكن بشرط أن يظلوا على شراب لهم مُسْكِر ، لا يستطيعون التخلِّي عنه بسبب برودة الجو عندهم، وأنَّهم أرسلوا يسألون عن ذلك؟ .

فصدرت الفتوى أنَّه لا يُقبل إسلام مع شرب الخمر . .

وسواء أصحَّتِ القصة أم لم تصحَّ ، فإنَّها لو حدثتِ الآن لكان جواب كثير من المفتين كذلك! علماً بأن حديث أبي ذر الذي في «الصحيحين» ما أظنُّ أحداً يجهله ممَّن تصدَّر للإفتاء ، وفيه :

قال أبو ذر : أتيتُ النبيَّ ﷺ فقال : **(ما من عبد قال : لا إلٰه إلا الله ، ثم مات على ذلك ؛ إلا دخل الجنة)** قلتُ : وإن زنى وإن سرق؟ قال : **(وإن زنى وإن سرق)** قلتُ : وإن زنى وإن سرق؟ قال : **(وإن زنى وإن سرق)** قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : **(وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر)** .

وفي رواية : **(وإن شرب الخمر)**[1] .

دعه يا أخي يسلم . . ثم إنَّ الإسلام سيعلِّمه الاستقامة .

---

(١) رواه البخاري (٥٨٢٧ ، ٦٤٤٣).



● والمثال الأخير نسوقه من فقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

بلغ عمر بن الخطاب : أنَّ رجلاً كان كثير الزواج ، كثير الطلاق . . فاستدعاه فسأله عن ذلك ، فقال : إنَّه يتزوج المرأة وبعد أيام يسألها : هل أحبَّتْه؟ فتقول : لا ، فيطلِّقها . فاستدعى عمر آخر مطلقة وسألها ، فأكَّدت الخبر ، وقالت : إنه أقسم عليها إلا ما أخبرته الصدق ، فقال عمر : وهل كلُّ البيوت تُبنى على الحبِّ؟ قالت : أو أكذب يا أمير المؤمنين وقد أقسم علي؟ قال : نعم اكذبي .

رأى عمر رضي الله عنه أن تكذب في يمينها فتستغفر الله تعالى، والله غفور رحيم ، خير من الصِّدق هنا الذي أدَّى إلى هدم تلك الأسرة . .

إنَّ الدعوة إلى الله تحتاج إلى صدر رحب ، وفقه في دين الله ، وأن تكون مقاصد الشريعة واضحة لا لبس فيها ، فلا تختلط الفروع بالكليات .

٨ـ الحكمة في مخاطبة الناس:

فيخاطب كلَّ إنسان بقدر ثقافته . . وليبتعد عن الأمور الشائكة . . . قال علي رضي الله عنه : حدِّثوا الناس بما

يعرفون ، أتُحبون أن يكذَّب اللهُ ورسولُهُ؟ ![1] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كان لبعضهم فتنة[2] .

٩ـ على الداعية أن يستفيد من تجارب الآخرين:

إنَّ الدعوة إلى الله تعالى بمقدار ما تحتاج إلى العلم والإخلاص بمقدار ما تحتاج إلى الخبرة في الحوار ؛ فالشكل هنا ضروري ضرورة المضمون ؛ لأنَّه الموصل إليه .

وقد نبَّه الرسول الكريم ﷺ إلى خطر وأثر البلاغة في العرض ، وتأثيرها على السامع ، ولو كان المستمع قاضياً أو حاكماً .

قال ﷺ : **(إنَّكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجَّته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع)** .

إنَّ خبرات الآخرين في هذا الميدان يحسن أن نضمَّها إلى خبرتنا ، لنكون أقدر في ميدان العرض ، وأن يتتلمذ فيها الصغير على الكبير ، والجديد على القديم .

---

(١) رواه البخاري (١٢٧).

(٢) مقدمة صحيح مسلم .

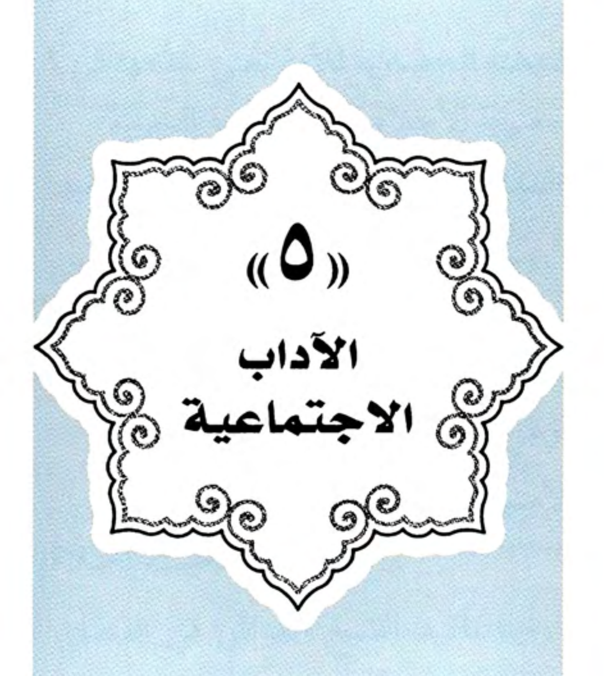


١٠ـ التعرُّف على الأسباب التي دفعت المسلمين الجدد إلى الإسلام:

وهذا جانب آخر يمكن أن يضاف إلى الخبرة ، وهو تسجيل الأسباب التي دعت المسلمين الجدد إلى الإسلام ، ولو أمكن تسجيل ذلك ومتابعته لكان ذلك مساعداً كبيراً للدعاة ، وقد يختصر عليهم الطريق. . لأنَّه من خلال هذا الرصد نستطيع معرفة الخصائص التي تستهويهم فيكون التركيز عليها أكثر من غيرها .







«٥»
الآداب
الاجتماعية



تمهيد



إنَّ النهضة الحضارية للأمة تعني تقدُّمها في شتَّى ميادين الحياة المعنوية الأخلاقية ، والمادية المدنيَّة .

أمَّا المدنية: فهي تعني التقدُّم المادي بعيداً عن القيم الأخلاقية .

ولقد كانت نهضة المسلمين حضارية متوازنة ، نهضة أخلاقية واكبها نقلة مادية كبيرة . . ولقد بقيت هذه الحضارة قروناً ، وهي منفردة على الساحة العالمية . .

وإنَّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ
فإن هُمُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا

وقد رأينا تأكيد الشيخ الغزالي في الفصل الأول على الاهتمام بهذا الجانب للنهوض بالأمة .

والآداب والأخلاق كلاهما يدخل في بناء الأمة الروحيِّ والسلوكيِّ .

وفي هذا البحث نتناول الكلام على نماذج من الآداب



التي ينبغي الالتزام بها ، ضمن ما ينبغي علينا عمله في سبيل الوصول إلى تحقيق ما طُلب منا في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ونرجئ الحديث عن العمل «الأخلاقي» إلى المبحث التالي.

* * *

الفَصْلُ الأَوَّلُ



العنايــة بالمظهــر الخارجــيّ



عنـدمـا نتحـدَّث عـن الآداب الاجتمـاعيـة ، فـإنَّ أول ما ينبغي الحديث عنه هو عناية الإنسان بمظهره الخارجي ، بحيث يكون مقبولاً لدى الآخرين ، ومحبباً لهم ، فلا تكون هيئته منفِّرة .

والنـاس بهـذا المظهـر يعـرف بعضهـم بعضـاً ، وبـه يتعايشون .

وقد طلب الإسلام العناية بذلك ، وجعلها أوامر ينبغي على المسلم تنفيذها .

ولبيان ذلك ، فنحن بحاجة إلى بيان عناية الإسلام بالجسم ، وعنايته بالثياب؛ فهما اللذان يشكلان المظهر الخارجي .



١ ـ الجسم:

تعدُّ «النظافة» عاملاً أساسيّاً من عوامل العناية بالجسم حتَّى يكون مقبولاً لدى الآخرين.

والنظافة وإن كانت أمراً فطريّاً، ينبغي أن يقوم به الإنسان بدافع من هذه الفطرة، إلا أنَّ الإسلام قد أخضعها لنظام وتوقيت ومناسبات، وذلك حتى لا يُتهاون بها، أو يُتكاسل عنها، أو تُهمل عندما تصاب الفطرة ببعض الخلل.

وقد شرفت «النظافة» في ظلٍّ هذا الدين، إذا جُعلت شطراً من العبادة اليومية، بل جُعلت شرطاً يتوقَّف عليها صحة هذه العبادة التي هي الصلاة.

قال ﷺ: **(الطهور شطر الإيمان)**[1].

ولم يكتفِ الإسلام بذلك، بل ارتقى بها إلى درجة أعلى، حين جعلها صفة تُنال بها محبة الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وهي العمل الأول الذي يقوم به من أراد الدخول في

(١) رواه مسلم (٢٢٣).



الإسلام ، ليزيل عن نفسه أرجاس الجاهلية ، قال قيس بن عاصم رضي الله عنه : «أتيتُ رسول الله ﷺ أريد الإسلام ، فأمرني أن أغتسل بماء وسدر»[١] .

وهي بعد ذلك عمل منتظم في حياة المسلم عليه القيام به .

ـ ففي كل أسبوع عليه أن يغسل جسمه ، قال النبيُّ ﷺ : **(حقٌّ على كلِّ مسلم أن يغتسل في كلِّ سبعة أيام يوماً ، يغسل فيه رأسَه وجسده)**[٢] .

فهذا الغسل شرع للنظافة .

ـ وطلب منه كلَّ يوم جمعة أن يغتسل من أجل «صلاة الجمعة» ، قال النبيُّ ﷺ : **(إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسلْ)**[٣] .

ـ وهناك أغسال أخرى أوجبها الشرع بحسب مناسباتها .

ـ يضاف إلى ذلك نظافة يومية تتناول الأعضاء الظاهرة من الجسم ، وهي تكرر كلَّ يوم أكثر من مرة؛ وهي «الوضوء» .

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٥) ، وكذا الترمذي والنسائي .
(٢) رواه البخاري (٨٩٧)؛ ومسلم (٨٤٩) .
(٣) رواه البخاري (٨٨٧)؛ ومسلم (٨٤٤) .

وينبغي حتى يكون الوضوء صحيحاً ، أن لا يكون على الأعضاء المطلوب غسلها ما يمنع وصول الماء إليها ، من شحوم أو دهانات أو ما أشبه ذلك ، فإذا كان عليها شيء من ذلك فعليه إزالته أولاً ثم يباشر الوضوء بعد ذلك . .

إنَّ هذه الأغسال ، سواء أكانت للأعضاء الظاهرة من الجسم ، أم كانت لكامل الجسم ، تدع المسلم على نظافة مستمرة .

* * *

٢ ـ الثياب:

والثياب ـ وإن كانت ممَّا تتطلَّبه الفطرة ـ فهي مطلوبة في الإسلام لستر العورة أولاً ، وللوقاية من الحرِّ والبرد ثانياً ، وللزينة ثالثاً .

ويَطْلُب الإسلام أن يتوفَّر فيها أيضاً : الطهارة والنظافة .

فالطهارة هي الحدُّ الأدنى الذي لابدَّ منه ، بمعنى أن ثياب الإنسان ينبغي أن تكون خالية من جميع النجاسات والقاذورات ، وهي بهذا تكون طاهرة تصلح لأداء الصلاة .

والطهارة وحدها غير كافية ، فلابدَّ من العناية بنظافة الثياب؛ إذِ الطهارة إزالة لما يقرر الإسلام قذارته شرعاً ،

والنظافة أعمُّ من ذلك ، فهي المحافظة على الثياب بعيدة عن كلِّ الأوساخ ، وتجديد غسلها كلَّما أصابها شيء من ذلك .

فالثوب قد يكون وسخاً ، وهو مع ذلك طاهر ، يمكن الصلاة فيه ، بمعنى أن الأوساخ التي أصابته ليست نجسة . . ومع ذلك فمطلوب تنظيفه .

قال جابر رضي الله عنه : أتانا رسول الله ﷺ زائراً ، فرأى رجلاً عليه ثياب وسخة ، فقال : **(أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه؟!)**[١] .

إنَّ الطهارة والنظافة أمران لا يعذر في التهاون بهما أحد من النَّاس ، غنيّاً كان أم فقيراً .

ويحسن بالإنسان أن يتخذ الحسن من الثياب ، بحسب ما تسمح به ظروفه المادية ، على أن لا يكون ذلك بدافع الكِبر والتعالي على خلق الله تعالى .

روى أبو الأحوص ، عن أبيه ، قال : أتيتُ رسول الله ﷺ ، وعليَّ ثوب دون ، فقال لي : **(ألك مال؟)** .

قلتُ : نعم .

قال : **(من أي المال؟)** .

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٦٢) .



قلتُ: من كل المال قد أعطاني الله ، من الإبل والبقر والغنم والخيل والرقيق.

قال: **(فإذا آتاك الله مالاً ، فليُرَ أثرُ نعمةِ الله عليك وكرامته)**[1].

وقد كان النبيُّ ﷺ يعتني بلباسه ، وهو القدوة للناس.

وقد انتقد بعضهم ابن عباس رضي الله عنهما بسبب تأنُّقه بملبسه ، فردَّ عليه قائلاً: «لقد رأيتُ على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل»[2].

وكان رسول الله ﷺ يحدِّث أصحابه بقوله: **(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر)** فقال رجل: إنَّ الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة ، قال: **(إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال. الكبر: بطَرُ الحقِّ وغمطُ النَّاس)**[3].

فعلم بهذا أنَّ الله يحبُّ الجمال ، والجميل من الثياب ، والجميل من كل شيء.

إنَّ حُسن الثياب أمر مطلوب ما دامت القدرة عليه

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٦٣)؛ والنسائي والترمذي.
(٢) رواه أبو داود (٤٠٣٧). انظر: جامع الأصول: ١٠/ ٦٦٥.
(٣) رواه مسلم (٩١).

موجودة ، فقد قال جابر رضي الله عنه : جاءنا رسول الله ﷺ وعندنا صاحب لنا يرعى ظهراً لنا ، وعليه بُردان قد أخْلَقَا ، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: **(أما له ثوبان غير هذين؟)** قلتُ: بلى ، له ثوبان في العيبة كسوتُه إياهما. قال: **(فادعُه فليلبسهما . .)** ثم قال: **(أليس هذا خيراً؟)**(١) .

إنَّه ﷺ لم يقبل من هذا الراعي ـ وطبيعة عمله بعيدة عن مخالطة النَّاس ـ أن يلبس ثياباً ممزَّقة طالما أنَّه يملك ما هو خير منها .

٣ ـ الشعر:

والشعر في الرأس مادة نامية ، لابدَّ من العناية بها نظافة وتنظيماً ، قصّاً وتسوية ، تمشيطاً وعطراً.

وقد وردتِ السُّنَّة بذلك :

قال رسول الله ﷺ: **(من كان له شعر فليكرمه)**(٢) .

والإكرام هنا ليس إلا النظافة والتمشيط والتطييب ، وأن يُجْعَل في شكل تقبله الفطرةُ السليمةُ.

قال جابر رضي الله عنه : رأى رسول الله ﷺ رجلاً ثائر

---

(١) رواه في الموطأ (١٦٨٨).

(٢) رواه أبو داود (٤١٦٣).



الرأس ، فقال: (**أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره؟!**)[1].

إنَّه بيان لكراهته ﷺ لهذا المنظر ، منظر الشعر المتفرِّق غير المرتب ، كما هو لفت نظر إلى سهولة فعل ذلك ويسره ، فالمشط متوفِّر في كلِّ بيت ، فلا أقلَّ من النظر في المرآة قبل الخروج.

ويتأكَّد هذا المعنى بما رواه الإمام مالك عن عطاء بن يسار ـ مرسلاً ـ قال: كان رسول الله ﷺ في المسجد ، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية ، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده ، كأنَّه يأمره بإصلاح شعره ولحيته ، ففعل ثم رجع ، فقال رسول الله ﷺ: (**أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم وهو ثائر الرأس كأنَّه شيطان؟!**)[2].

وفي تشبيه فاعل ذلك بالشيطان ، تنفير من الإهمال ، وحثٌّ على العناية بالهيئة ، والبُعد عن كلِّ ما يؤذي الآخرين منظره.

والعناية باللحية أيضاً أمر ضروريٌّ ، فينبغي تمشيطها وأخذ ما يسيء لمنظرها ، فقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري: «وكان ابن عمر إذا حجَّ أو اعتمر قبض على

(١) رواه أبو داود (٤٠٦٢)؛ والنسائي (٥٢٥١).
(٢) أخرجه الإمام مالك (١٧٧٠).



لحيته، فما فضل أخذه»[١] أي: قص منها ما زاد طوله عن قبضة[٢].

وقد وردت الأحاديث الكثيرة بقصِّ الشارب وتقليم الأظافر.

إنَّ العناية بشعر الرأس، وكذلك باللحية والشوارب، وبتقليم الأظافر، بين الفينة والفينة، وكلَّما دعت الحاجة.. هو استكمال لجمال الهيئة الذي يطلبه الإسلام ويحثُّ عليه.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٥٨٩٢).

(٢) قال الإمام مالك رحمه الله: «ولا بأس بالأخذ من طولها إذا طالتْ كثيراً بحيث خرجت عن المعتاد لغالب النَّاس، فيقصُّ الزائد لأنَّ بقاءه يقبح به المنظر، وحكم الأخذ الندب». الفتح الرباني، ترتيب المسند، للبنا: ١٧/ ٣١٤.
وذهب ابن حجر إلى مثل ذلك، واحتجَّ بفعل ابن عمر، وقال: «قلتُ: الذي يظهر أن ابن عمر كان لا يخصُّ هذا التخصيص بالنسك، بل كان يحمل الأمر بالإعفاء على غير الحالة التي تشوِّه فيها الصورة بإفراط طول شعر اللحية أو عرضه» وقال بأن هذا ما ذهب إليه الحسن البصري وعطاء وغيرهما. قال: وقال عطاء: إنَّ الرجل لو ترك لحيته لا يتعرض لها حتى أفحش طولها وعرضها لعرَّض نفسه لمن يسخر به.اهـ. فتح الباري: ١٠/ ٣٥٠.

إنَّ الهندام الحسن هو مجموعة أشياء ، منها : العناية بالجسم والشعر واللباس ، ومنها : استعمال الطيب الذي حثَّ عليه النبيُّ ﷺ.

والهندام الحسن أمر يطلبه الإسلام ، كما سبق شرح ذلك ببيان أفراده ، وهو الخطُّ العامُّ الذي ينبغي على المسلم أن يلازمه ، حتى يكون مقبولاً لدى الآخرين.

وقد أوصى النبيُّ ﷺ بعض أصحابه ، وكانوا على سفر فقال : (**إنَّكم قادمون على إخوانكم ، فأصلحوا رحالكم ، وأصلحوا لباسكم ، حتَّى تكونوا كأنَّكم شامة في الناس**)[1] .

والمعنى : كونوا في أحسن زيٍّ وهيئة ، حتى تظهروا للناس وينظروا إليكم ، كما يُنظر إلى الشامة إذا وجدت في الجسد ، إذ هي تلفت النظر . . .

وإذا كان ﷺ يطلب من المسافرين إصلاح شأنهم قبل لقاء إخوانهم ، في وقت لم تكن وسائل هذا الإصلاح متوفرة دائماً ، فمن بابِ أولى أن يطالب المقيم بذلك.

إنَّ الالتزام بالمظهر الحسن ليس نافلة من النوافل ، ولكنَّه أمر من الأوامر.

* * *

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٨٩).



الفصل الثاني




السَّمْتُ الحَسَنُ

كان حديثنا في الفصل السابق عن العناية بالمظهر الخارجي للإنسان ، ونتحدَّث في هذا الفصل عن حسن التَّصرُّف ، وأدب النفس ، وهو ما يسجله الحديث الآتي :

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبيِّ ﷺ : أنَّه قال : (**الهديُ الصَّالح ، والسَّمْت الصالح ، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة**)[1] .

والهديُ : هو حال الرجل وطريقته ، ويقال في السَّكينة والوقار ، وفي الهيبة والمنظر والشمائل .

والسَّمْت : حسن المنظر في أمر الدِّين ، أي : حسن الهيئة من جهة الخير والدين لا من جهة الجمال والزينة ، ويطلق على الطريق .

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٦) .



والمراد بالهدي والسمت: أن يكون للمسلم هيئة أهل الخير على طريقة أهل الإسلام.

والاقتصاد: هو سلوك القصد في الأمر ، والدخول فيه برفق، وهو سلوك ناتج عن خُلقين؛ هما: العدل والحكمة.

فبالعدل يتوسَّط بين الإفراط والتفريط ، كالجود فهو متوسط بين الإسراف والبخل..

وبالحكمة يضع الأمور في موضعها اللائق بها..

والهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد: تعني بمجملها طريقة الإنسان في مشيه وحركته وتصرُّفه .. وأن يكون ذلك على طريقة أهل الصلاح من المسلمين.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتشبَّهون بهذا برسول الله ﷺ.

قال حذيفة رضي الله عنه: «إنَّ أشبه النَّاس دلاًّ وسمتاً وهدياً برسول الله ﷺ لابن أم عبد» أي: عبد الله بن مسعود[1].

والدَّلُّ: هو حسن الحركة في المشي والحديث ، وغيرهما.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٧).



وممَّا يوضح جانباً من هذا الموضوع ما جاء في حديث وفد عبد القيس ، حينما قدِموا على النبيِّ ﷺ ، فلما رأوه تركوا ركابهم . . وأقبلوا سراعاً إليه ﷺ، وتخلَّف الأشجُّ ـ وهو منذر بن عائذ ـ فجمع ركابهم ، ثم أناخها ، وحطَّ أحمالها وجمع متاعها ، ثم أخرج عيبته ، وألقى عنه ثياب السفر ولبس حلة، ثم أقبل يمشي مترسلاً . . فقال له النبي ﷺ: **(إنَّ فيك لخصلتين يحبُّهما الله: الحلم، والأناة)**(١) .

إنَّ تصرُّف أشجِّ عبد القيس الذي أثنى عليه النبيُّ ﷺ يمثِّل السَّمْتَ الحَسَنَ الوارد في الحديث السابق .

إنَّ حسن المظهر الناتج عن العناية بالجسم والثياب ، ينبغي أن يواكبه حسن في طريقة المشي والحركة . . بحيث تكون بعيدة عن التكبُّر والتعالي على الناس ، كما تكون بعيدة عن التماوت الذي يرفضه الإسلام .

إنَّه ينبغي أن يكون كما قال تعالى في وصف المؤمنين عبادِ الرحمنِ ؛ حيث قال : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

---

(١) جاءت القصة : في الأدب المفرد ، للبخاري (١١٩٨)؛ والحديث رواه مسلم (١٨) .



قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية الكريمة: «أي: يمشون بسكينة ووقار، من غير جبرية ولا استكبار؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، فأما هؤلاء فإنَّهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنَّهم يمشون كالمرضى تصنُّعاً ورياءً، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ، وكأنَّما الأرض تطوى له.

وقد كره بعض السَّلف المشي بتضعُّف وتماوت حتَّى روي عن عمر: أنَّه رأى شابّاً يمشي رويداً، فقال: ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشي بقوة، وقال: لا تُمِتْ علينا ديننا.

وإنَّما المراد بالهون هنا: السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: (**إذا أتيتُمُ الصلاةَ فلا تأتوها وأنتم تسعون، وائتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم منها فصلوا، وما فاتكم فأتموا**)[1]» انتهى كلام ابن كثير.

وبهذا تحدِّد الأحاديث الشريفة والآيات الكريمة كيف يكون السَّمتُ حسناً وكيف يكون الدَّلُّ حسناً؛ إنَّه حسن

---

(١) رواه البخاري (٦٣٥)؛ ومسلم (٦٠٣).



القصد الذي لا يكون صاحبه من المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]، ولا يكون كذلك من المتمارضين.. إنَّه الهون والسكينة والوقار.. إنَّه الحركة النشيطة التي ليس فيها من الكبر شيء.



الفصل الثالث



أدبُ اللّقـاء



أدب اللقاء؛ سواء أكان بناء على موعد مسبق ، أو كان لقاء عابراً ، فإنَّ صورته واحدة ، والمطلوب فيه ثلاثة أمور : السلام ، وطلاقة الوجه ، والمصافحة .

١ـ السلام:

أما السَّلام فله آدابه ، ومنها : بيان من الأحق ـ أو الأولى ـ بإلقاء السلام؛ فالراكب يسلِّم على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير ، والمنفرد على الجماعة . .

وهذا النظام ورد في سنن محفوظة ثابتة ، يعرفها الناس جميعاً .

جاء في «العقد الفريد» : أنَّ عمر بن عبد العزيز خرج في يوم عيد يريد الصلاة ، فتقدَّم واحد من القوم فسلَّم عليه ، فقال له : مه ، أنا واحد ، وأنتم جماعة ، السلام عليَّ والردُّ



عليكم. ثم سلَّم عليهم وردُّوا عليه ، ومشى ومشوا إلى الصلاة[١] .

والسلام تحية المسلمين، وفيه معنى الأمن والاطمئنان والودِّ.

وله صيغ ، يختار المسلِّم واحدة منها؛ وهي: السلام عليكم ، أو: السلام عليكم ورحمة الله ، أو: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ولا يزيد على ذلك ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ السلام انتهى إلى البركة[٢] .

وينبغي أن يكون إلقاء السلام بصوت واضح مسموع ، وقد قيل قديماً: إذا قلتَ فأسمع ، وهذا لا يعني أن يرفع صوته أكثر مما ينبغي. . بل يكون بما يتناسب مع الموقف.

والسلام حقٌّ من حقوق المسلم على المسلم ، ابتداءً أو ردّاً ، فقد جاء في الحديث الصحيح: **(حقُّ المسلم على المسلم ست)** ، ومنها: **(إذا لقيتَه فسلِّم عليه)**[٣] ، وفي رواية: **(رد السلام)**[٤] .

---

(١) العقد الفريد: ٢/ ٢٥٣ ، طبعة دار إحياء التراث العربي.
(٢) الموطأ (١٧٨٩).
(٣) رواه مسلم (٢١٦٢).
(٤) رواه البخاري (١٢٤٠).



وما ذلك إلا لما في السلام من نشر المحبة بين النَّاس ، قال ﷺ : (**أو لا أدُلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**)[1] .

* * *

٢ ـ المصافحة:

وأما المصافحة فهي من تتمة السلام ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يصافح بعضهم بعضاً[2] .

وروى البراء بن عازب رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ قوله : (**ما من مسلمين يلتقيان ، فيتصافحان ، إلا غفر لهما قبل أن يفترقا**)[3] .

وعن ثابت البناني : أنَّ أنساً كان إذا أصبح دهن يده بدهن طيب لمصافحة إخوانه[4] .

وما زال النَّاس يعدُّون المصافحة هي السلام العملي الذي ينبغي أن يكون مقترناً مع السلام القولي .

* * *

(١) رواه مسلم (٥٤).
(٢) رواه البخاري (٦٢٦٣).
(٣) رواه أبو داود (٥٢١٢)؛ وكذا الترمذي وابن ماجه؛ وصححه الألباني.
(٤) الأدب المفرد (١٠١٢) ، وقال الألباني: حسن الإسناد.



٣ ـ طلاقة الوجه:

وأما طلاقة الوجه فهي مطلوبة من المسلم بشكل دائم ، ولكنها عند اللقاء آكد ، فهي تعبير عن الفرح بلقاء الأخ أخاه ، والصديق صديقه . .

فقد جاء في الصحيح قوله ﷺ: (**لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**)[١] .

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (**كلُّ معروفٍ صدقة، وإنَّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق**)[٢] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: (**تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة**)[٣] .

وفي الحديث أيضاً: قوله ﷺ: (.. **وأن تكلِّم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، إنَّ ذلك من المعروف** ..)[٤] .

هذه الأحاديث وغيرها تؤكد ضرورة أن يتَّصف المسلم بطلاقة الوجه ، وأن يكون ذلك بادياً على قسمات وجهه وبخاصة عند اللقاء .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٢) رواه الترمذي (١٩٧٠).

(٣) رواه الترمذي (١٩٥٦).

(٤) رواه أبو داود (٤٠٨٤ ، ٥٢٠٩).



السلام، والمصافحة، وطلاقة الوجه ، تلك هي الأمور المطلوبة عند اللقاء، وينبغي أن يكون الطرف الآخر كذلك، وأن يكون ردُّه على التحية بأحسن منها ، وأن يبادر بحرارة اللقاء ، على قدر أو أكثر ممَّا يتلقاه من الطرف البادئ . .

تلك هي سنة الإسلام.

وممَّا ينبغي التنبيه عليه: أنَّ هذا اللقاء إذا كان في الطريق ، فيحسن أن لا يكون في مكان يعرقل فيه السير ، أو يضيق فيه على المارة ، أو يكون بباب المسجد عند خروج المصلين منه . . أو ما أشبه ذلك.

كما ينبغي أن لا يطول ذلك ، فالطريق ليس مكاناً لتبادل أطراف الحديث . .

* * *

● وأما المعانقة: فإنَّما هي من تمام التحية للقادم من سفر ، ففي «الأدب المفرد» للإمام البخاري: أنَّ جابر بن عبد الله سافر إلى الشام في طلب حديث عند عبد الله بن أنيس ، فلما أخبر عبد الله بن أنيس أنَّ جابراً بالباب خرج إليه فعانقه[١] .

---

(١) الأدب المفرد (٩٧٠).



وأخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» من حديث أنس: كانوا إذا تلاقوا تصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تعانقوا[١] .

وأخرج أبو داود: عن أبي ذر ، قال: ما لقيتُ النبيَّ ﷺ إلا صافحني[٢] .

ولما رجع جعفر بن أبي طالب من الحبشة اعتنقه النبيُّ ﷺ. . .[٣] .

وكذلك لما رجع زيد بن حارثة من قتال فزارة . . وطرق باب النبيِّ ﷺ ، قام إليه ﷺ فاعتنقه[٤] .

كلُّ هذه الأحاديث تؤكِّد أنَّ المعانقة إنما تكون عند العودة من السفر ، وليس بين أيدينا ما يدلُّ أنَّها تكون في مناسبة أخرى .

* * *

---

(١) عن: شرح الأدب المفرد ، لفضل الله الجيلاني: ٢/ ٤٢٤ .

(٢) رواه أبو داود (٥٢١٤).

(٣) رواه أبو داود (٥٢٢٠).

(٤) رواه الترمذي (٢٧٣٢).



الفَصْلُ الرَّابِعُ



أدبُ الزيـارة



حثَّ الإسلام على صلة الوالدين والأهل والأصدقاء ، وتعدُّ «الزيارة» في مقدمة وسائل الصلة .

والزيارة: أن يذهب إليهم ، ويجلس معهم ، ويتعرَّف على أحوالهم . .

والأصل فيها أنَّها عمل أخلاقيٌّ عاطفيٌّ ، فإذا كانت بدافع ماديٍّ لبيع أو شراء أو ما أشبه ذلك ، فلا تسمى زيارة ، وقد أطلق عليها في الأيام الأخيرة «زيارة عمل» إذا كانت لمثل هذه الأمور .

وحديثنا هنا عن الزيارة المطلقة التي لا دافع مادي وراءها .

* * *

وقد حضَّ الإسلام على ذلك واعتبره من القربات إلى الله تعالى .



فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : (**أنَّ رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد**[١] **الله له ـ على مدرجته**[٢] **ـ ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربُّها**[٣]؟ **قال : لا ، غير أني أحببته في الله عز وجل ، قال : فإنِّي رسول الله إليك ، بأنَّ الله قد أحبَّك كما أحببتَه فيه**)[٤] .

وإذا كانت هذه الزيارة للأقرباء ذوي الرحم ، أضيف إليها ثواب صلة الرحم ، وإذا كانت للوالدين ، فإنَّها تكون أرفع مكانة وأكثر أجراً ، لأنَّها تكون من البر الذي أمر الله تعالى به .

والزيارات هي العامل الأهم في ربط المؤمنين بعضهم مع بعض ، حتى يكونوا كما وصفهم الحديث الشريف بقوله ﷺ : (**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد . .**)[٥] . ومن هنا تكتسب أهميتها .

---

(١) **فأرصد له** : أي أقعده على طريقه يرقبه.

(٢) **مدرجته** : هي الطريق.

(٣) **تربُّها** : أي تقوم بإصلاحها.

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٧).

(٥) رواه البخاري (٦٠١١)؛ ومسلم (٢٥٨٦).



وللزيارة آداب يحسن الالتزام بها :

• منهـا : **التجمُّـل بـالثيـاب الحسنـة** : ففـي «الأدب المفرد»[1] : عن أبي خلدة قال : جاء عبد الكريم إلى أبي العالية ، وعليه ثياب صوف ، فقال أبو العالية : إنما هذه ثياب الرهبان ، كان المسلمون إذا تزاوروا تجمَّلوا .

• منها : **الموعد المسبق** : فالإنسان ليس بمقدوره أن يكون دائماً على استعداد لاستقبال الزائرين ، فقد يكون في عمل لا يسمح له بذلك ، وقد يكون في أوضاع مادية أو نفسية لا تسمح له بذلك .

ومراعاة لهذا الأمر جاء القرآن الكريم بالأدب المطلوب في مثل هذه الحالة ، قال تعالى : ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور : ٢٨] .

ومعنى الآية الكريمة : إنَّك إذا استأذنت على إنسان ، وكان غير قادر على استقبالك وقال لك : ارجع ، أو ما في معناها ، فعليك أن ترجع . .

فالغاية هي عدم إحراج الشخص المزار ، إذا كان الوقت بالنسبة إليه غير مناسب .

---

(١) الخبر (٢٧٧) .



وقد يسَّر الله للنَّاس من الوسائل ما يؤدِّي الغرض ، فأصبحت الهواتف في كلِّ بيت ؛ فعندما تريد زيارة صديقك مثلاً ، فعليك أن تأخذ الهاتف ـ إن وجد ـ وتعلمه برغبتك بزيارته . . وعندها يمكن الاتفاق على الموعد . .

وبهذا يتحقَّق ما قصدتْ إليه الآية الكريمة . .

وإذا وجد الموعد ، فينبغي على الزائر أن لا يأتي قبل الوقت ، وإذا وصل قبل الوقت فلينتظر حتى الوقت المحدد ثم يستأذن بعد ذلك .

فربما كان الرجل خارج بيته ، وقد رتَّب أموره على أن يكون على الموعد في بيته ، وقد يكون في بيته ، ولكنه هيَّأ نفسه للاستقبال في الموعد المتفق عليه .

وإذا ذكرنا أمر عدم القدوم قبل الوقت ، فيحسن أن لا يتأخَّر عن الوقت ؛ لأنَّ ذلك يعدُّ شغلاً للرجل بالانتظار ، والانتظار وقت ضائع لا يُستفاد منه .

وينبغي أن لا يستغرب هذا الاهتمام بأمر الموعد والانضباط معه ، لأنَّ ذلك من صفات المؤمنين ، كما جاء ذلك في الكتاب والسُّنَّة ، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة تعد إخلاف الوعد من صفات المنافقين .

● **ومنها :** أن الزائر إذا أراد الاستئذان لم يقف تجاه



الباب ، وإنما يقف عن يمينه أو يساره؛ بحيث إذا فتح الباب ، لم يدخل بصره إلى البيت قبل دخوله ، بهذا جاءت السُّنَّة النبوية الكريمة .

وإذا كان مجيئه على غير موعد فليستأذن ثلاثاً ، فإن أذن له وإلا رجع ، وكان الاستئذان زمن النبيِّ ﷺ بالصوت ؛ حيث يسلِّم الإنسان ثم يستأذن . . وقد استحدثت الآن وسائل تنبيه . . تؤدِّي الغرض ، فينبغي استعمالها بالطريقة نفسها ، أي أن يدقَّ الجرس ـ مثلاً ـ مرة بعد مرة ، فإذا استكمل الثلاث ولم يكن جواب انصرف .

● **ومنها :** إذا دخل البيت بعد السلام والمصافحة مع طلاقة الوجه كما سبق شرحه ، فليجلس حيث يجلسه صاحب البيت . .

وليكن حديثه بعيداً عن الغيبة والنميمة والخوض في أعراض النَّاس ، فذلك ممَّا لا يحلُّ ، وهو مدعاة لارتكاب الآثام .

● **ومن الآداب التي يَحْسُنُ مراعاتها في المجلس :** ما جاء في قول بعضهم : إذا جلست فلا تتكبَّر على أحد ، وتحفَّظ من العبث بلحيتك ، ومن اللعب بخاتمك ، وتخليل أسنانك ، وإدخال أصبعك في أنفك ، وكثرة بصاقك ، وكثرة

التمطِّي والتثاؤب في وجوه الناس، وليكن مجلسك هادئاً ، وحديثك منظوماً مرتَّباً، واصغِ إلى كلام مجالسك، واسكتْ عن المضاحك ، ولا تتصنَّع تصَنُّع المرأة في التزيُّن.

وقيل: من السُّنَّة إذا حدَّثتَ القوم أن لا تقبل على واحد منهم ، ولكن اجعل لكلٍّ واحد منهم نصيباً[(١)] .

وقال بعض الحكماء: تعلَّم حسن الاستماع كما تتعلَّم حسن الحديث ، وليعلم الناس أنك أحرص على أن تسمع منك على أن تقول.

وإذا سُئل غيرك فلا تجب عنه ، وإذا حدَّثَ بحديث فلا تنازعه إياه[(٢)] .

ويَحْسُن ـ هنا ـ أن أشيرَ إلى أمر مُسْتَحْدَث ، وهو الاشتغال بـ «هاتفك المحمول» أو ما يشبهه من أدوات الاتّصال ، والانصراف إليه غير عابئ بمن حولك ، وهذه الظاهرة ـ مع الأسف ـ أصبحت متداولةً بين الناس.

وبدهيٌّ أنَّ هذا ليس من أدب المجالس ، أن تكون حاضراً بجسمك مع القوم ، وعقلك في مكان آخر.

● **وينبغي أن لا يطيل الزائر الجلسة:** فالغاية هي

---

(١) المستطرف: ١/ ٢١٢.

(٢) العقد الفريد: ٢/ ٢٤٨.



المواصلة ، وهي تحصل بالوقت القليل ، وإطالتها إضاعة للوقت ، والوقت أثمن ما يحافظ عليه.

ومن الآثار السيئة لإطالة الزيارة: الخوض فيما لا يعني من الكلام ، أو الانتقال إلى الحديث عن زيد وعمرو فيما لا ينبغي..

فالإنسان في العادة يتكلَّم في أول الجلسة بما هو مهمٌّ ، وما هو حسن ، فإذا طال المجلس اضطرَّ أن يملأه.. وهذا الملء قد يكون بالخير وقد يكون بغير ذلك ، وهذا مرتبط بالأشخاص الحاضرين.

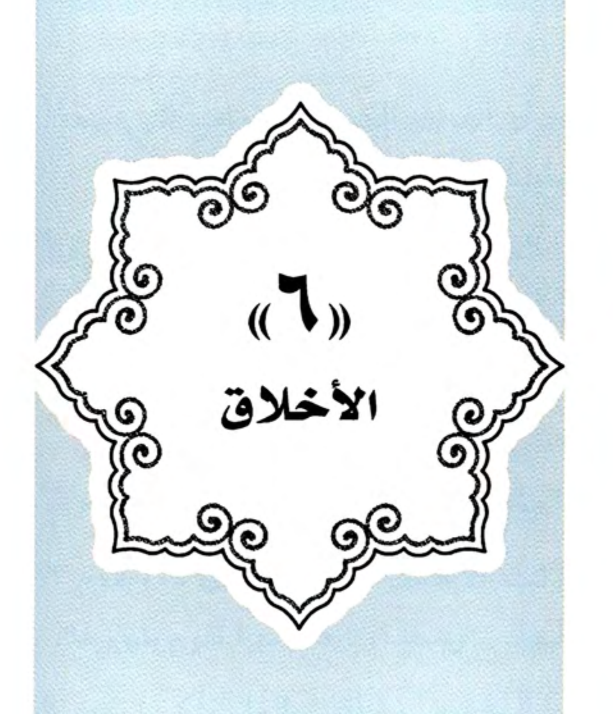
• **وفي ختام الزيارة وقبل الانصراف يحسن إنهاء المجلس بالدعاء الآتي:**

(سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إلٰه إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك) ، فقد قال ﷺ: **(من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال ذلك قبل أن يقوم ؛ غُفر له ما كان في مجلسه ذلك)**[1].

* * *

(١) رواه أبو داود (٤٨٥٨)؛ والترمذي واللفظ له (٣٤٣٣).





((٦))

الأخلاق



تمهيد



لقد نزل القرآن الكريم بالأوامر التي تتعهَّد الأخلاق وتحثُّ عليها قبل أن ينزل بآيات التشريع.

ومن المعلوم: أنَّ العهد المكيَّ كان زمناً تولَّى فيه النبيُّ ﷺ تربية أصحابه على الأخلاق الكريمة بتوجيه من القرآن الكريم، ثم كان العهد المدني عهد التشريع وبيان الأحكام.

وهذا ممَّا يبين مكانة الأخلاق في بنيان هذه الأمة.

وتوارثت الأجيال هذه الأخلاق، ويقوم الآباء بتربية الأبناء عليها.. وهكذا.. فالأسرة تقوم بدورها..

وتقوم المدارس وحلقات العلم بتكميل دور المنزل.

ويُسهم العلماء والمربُّون في ساحات العلم والدروس وخطب الجمعة وغيرها.. بالتذكير بذلك وتصحيح المسار كلَّما ظهر انحراف..



وقد أُلفت الكتب في هذا الفنِّ . . وهي كثيرة . .

ولكن المشكلة أن البيان النظريَّ وحده في هذه القضية غير كافٍ . . فلابدَّ من المراقبة والتقويم ، ولذلك ظلَّ للأسرة مكانتها ودورها في هذا المضمار ، كما لم تستغنِ الأمة عن دور العلماء والمربين .

ولا مجال في هذه الخواطر عن الحديث المفصَّل في هذا الموضوع ، إنَّما هي الإشارة . .

وفي هذا الفصل سأذكر نصَّين من التراث . . جمعا بين الحديث عن الأخلاق والفضائل وبين الحِكَم والمواعظ . . وكلُّها تصبُّ في البناء الخلقي .

الأول : قصيدة في السلوك والآداب؛ عُرفت بـ (لامية ابن الوردي) كانت تُحَفَّظ للطلاب ، كحفظهم للأربعين النووية .

الثاني : حِكَم للإمام ابن القيم ، تصبُّ في هذا الموضوع جمعتُها من أماكن متفرقة من كتابه «الفوائد» .

واختياري لهذه الطريقة في عَرْض هذا الموضوع ، إنَّما كان للتذكير ببعض التراث الذي عُني بهذه الموضوعات ، ولأنَّه يؤدِّي الغرض المطلوب .

وفي ختام هذا التمهيد أذكر بأن الله امتدح نبيَّه ﷺ بأنَّه صاحب الخلق العظيم فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ولهذا فنهضة الأمة لا تؤتي ثمارها ، إذا لم تقم على أساس من مكارم الأخلاق.

* * *



الفَصْلُ الأوَّلُ



لاميــة ابن الــوردي[١]



اعتــزلْ ذكــرَ الأغــانــي والغَــزلْ
وقــلِ الفصــلَ وجــانــبْ مــنْ هَــزَلْ
ودعِ الـــذكـــرى لأيـــامِ الصِّبـــا
فــلأيــامِ الصِّبــا نجــمٌ أَفَــلْ[٢]

---

(١) ابن الوردي: عمر بن مظفر بن عمر، زين الدين بن الوردي، المصري الشافعي، كان إماماً بارعاً في اللُّغة والفقه والنحو والأدب، ونَظْمه في الذروة العليا، وله فضائل مشهورة، ولد في معرة النعمان قرب حلب عام (٦٩١هـ)، وتوفي بحلب عام (٧٤٩هـ)، وله ديوان شعر مطبوع، واشتهر بهذه المنظومة في الآداب.
وانظر ترجمته في: شذرات الذهب؛ والأعلام.
ولما كانت هذه المنظومة تصبُّ في موضوع هذا الكتاب، رأيتُ أن تأخذ مكانها فيه.

(٢) يقول: إنَّ أيام الصبا والشباب قد مضى وقتها.. فاترك تذكُّرَ ما كان في تلك الأيام.



إنَّ أهنـا عيشـةٍ قضيتهـا
ذهبـتْ لـذاتُهـا والإثـم حَـل[(١)]

واهجـرِ الخمـرةَ إن كنـت فتًـى
كيـف يسعـى فـي جنـونٍ مَـنْ عَقَـلْ

واتَّـقِ الله فتقـوى الله مـا
جـاورتْ قلـبَ امـرئٍ إلا وَصَـلْ

ليـس مَـنْ يقطـعُ طُـرْقـاً بطـلاً
إنَّمـا مـن يتقـي اللهَ البَطَـلْ

* * *

صـدِّقِ الشـرعَ ولا تـركـنْ إلـى
رجـلٍ يـرصـدُ فـي الليـلِ زُحَـلْ[(٢)]

حـارتِ الأفكـارُ فـي حكمـةِ مـنْ
قـدْ هـدانـا سُبْلَنـا عـزَّ وَجَـل

كُتِـبَ المـوتُ علـى الخلـقِ فكـمْ
فَـلَّ مـنْ جيشٍ وأفنـى مـنْ دُوَلْ[(٣)]

---

(١) يقول: إنَّ أهنأ الساعات التي قضيتها في أيام الصبا قد ذهبت لذَّتُها ، وبقي إثمها.

(٢) **زُحَل**: هو أحد الكواكب ، والمعنى: التزم بالشرع ـ الكتاب والسُّنَّة ـ ولا تصدق المنجِّمين.

(٣) أي: إنَّ الجيوش والدول حكمها حكم الأشخاص ، لابد أن =



أيـــنَ نمــــروذُ وكنعـــانُ ومَـــنْ
ملــــكَ الأرضَ وولَّـــى وعَـــزَلْ
أيــنَ عــادٌ أيــنَ فــرعــونُ ومَــنْ
رفـعَ الأهـرامَ مَـنْ يَسْمَـعْ يَخَـلْ[(١)]
أيــنَ مــنْ ســادُوا وشــادُوا وبَنَــوا
هلـكَ الكـلُّ ولـمْ تُغْـنِ القُلَـلْ[(٢)]
أيـن أربـابُ الحِجَـى أهـلُ النُّهـى
أيـنَ أهـلُ العلـمِ والقـومُ الأُوَلْ[(٣)]
سَيعيـــــدُ اللهُ كـــــلًّا منهـــــمُ
وسَيَجْـزِي فـاعـلًا مـا قـدْ فَعَـلْ

* * *

= يتناولها الموت والفناء ليقوم مقامها غيرها.

(١) **يَخَل**: يَظُن ، والمعنى: أن من يسمع عن الذين بنوا الأهرام يظن أنهم لن يتناولهم الموت ، ولكن أين هم الآن؟!.

(٢) **القُلَل**: جمع قلة ، وهو ما علا من القصور. أي: لم تغن عنهم قصورهم العالية وحصونهم القوية.

(٣) **الحجى**: العقل والفطنة ، **والنهى**: العقل ، **والأُوَل**: الذين مضوا وذهبوا.



أيْ بنـيَّ اسمـعْ وَصـايـا جَمَعَـتْ
حِكمـاً خُصَّـتْ بهـا خيـرُ المِلَـلْ

اطلـبِ العلـمَ ولا تكسـلْ فمـا
أبعـدَ الخيـرَ علـى أهـلِ الكَسَـلْ

واحتفِـلْ للفقـهِ فـي الـدِّيـن ولا
تشتغِـلْ عنـه بمـالٍ وخَـوَلْ[1]

واهجـرِ النَّـوْمَ وحصِّلـه فمـنْ
يعـرفِ المطلـوبَ يَحْقِـرْ مـا بَـذَلْ

لا تقـلْ قـد ذهبـتْ أربـابُـه
كـلُّ مـنْ سـارَ علـى الـدَّربِ وَصَـلْ

فـي ازديـادِ العلـمِ إرغـامُ العِـدا
وجمـالُ العلـمِ إصـلاحُ العمـلْ

جمِّـلِ المنطـقَ بـالنحـوِ فمـنْ
يحْـرَمِ الإعـرابَ بـالنطـقِ اخْتَبَـلْ[2]

---

(١) احتفل: أي اجمع همة نفسك، ومعنى خول: العبيد والخدم.
(٢) جمِّل: أي حسِّن، والإعراب: الإفصاح، واختبل: أصابه الخبال.



مـاتَ أهـلُ الفضـلِ لـم يبـقَ سـوى

مقـرفٍ أو منْ على الأصـلِ اتَّـكَلْ(١)

أنـــا لا أختـــارُ تقبيـــلَ يـــدٍ

قطعُهَـا أجمـلُ مـنْ تلـكَ القُبَـلْ(٢)

* * *

أعـذبُ الألفـاظِ قـولـي لـك: خُـذْ

وأَمَـــرُّ اللفـــظِ نُطْقِـــي بِلَعَـــلْ(٣)

ملـكُ كسـرى عنـه تغنـي كِسْـرةٌ

وعـنِ البحـرِ اجتـزاءٌ بـالـوَشَـلْ(٤)

---

(١) **مقرف**: دنيء، ومعنى **اتكل**: أي اعتمد على أصله ونسبه.

(٢) يرى الشاعر: أن بعض الناس قد يرتضون تقبيل الأيدي للحصول على العطاء ممن مدحوه.. وهو لا يختار هذا المسلك، فربَّما كانت تلك اليد آثمة تستحق القطع .. فكيف تُقَبَّل؟!.

(٣) يرى الشاعر: أن تلبية طلب صاحب الحاجة بكلمة (**خذ**) هو أعذب الألفاظ عنده، ووعده للسائل بكلمة (**لعل**) التي تعني الوعد .. لفظ مرٌّ المذاق.

(٤) **الوشل**: الماء القليل.



اعتبـر (نحـن قسمنـا بينهـم)[1]
تلْقَـه حقّـاً ، وبـالحـقِّ نَـزَلْ
ليسَ مـا يحـوي الفَتَى مـن عـزمِـهِ
لا ، ولا ما فَات يوماً بالكَسَلْ[2]

* * *

اطـرحِ الـدُّنيـا فَمِـنْ عـاداتِهـا
تخفـضُ العـالي وتُعلـي مـنْ سَفَـلْ
عيشــةُ الـراغـبِ فـي تحصيلهـا
عيشــةُ الجـاهـل فيهـا أو أَقَـل
كـمْ جهـولٍ بـاتَ فيهـا مُكْثِـراً
وعليـمٍ بـاتَ منهـا فـي عِلَـلْ
كـم شجـاعٍ لـم ينـلْ فيهـا المُنـى
وجبـانٍ نـالَ غـايـاتِ الأَمَـلْ
فـاتـركِ الحيلـةَ فيهـا واتكـلْ
إنَّمـا الحيلـةُ فـي تـركِ الحِيَـلْ

---

(١) قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

(٢) أي: ليس كلُّ ما يجمعه المرء من مال يرجع إلى ذكائه ، وليس كل ما فاته كان سببه الكسل.



أيُّ كــفٍّ لــم تُنِــلْ ممَّــا تُفَــدْ
فــرمــاهــا الله منــه بــالشَّلَــلْ(١)

* * *

لا تقــلْ أصلــي وفصلــي أبــداً
إنَّمــا أصــلُ الفتــى مــا قــدْ حَصَــلْ
قــد يســودُ المــرءُ مــنْ غيــرِ أبٍ
وبِحُسْنِ السَّبْك قد يُنفى الدَّغَلْ(٢)
إنَّمــا الــوردُ مِــنَ الشَّــوكِ ومــا
ينبــتُ النــرجِــسُ إلا مِــنْ بَصَــلْ
غيــر أنــي أحمــدُ اللهَ علــى
نَسَبــي إذْ بــأبــي بكــرِ اتَّصَــلْ(٣)
قيمــةُ الإنســانِ مــا يُحْسِنُــهُ
أكثــرَ الإنســانُ منــه أم أَقَــلْ(٤)

* * *

---

(١) يقول: كل يد لا تعطي مما تكسب وتجني، رماها الله بالشلل، فهو يدعو على كل بخيل..

(٢) **الدغل**: المفسد.

(٣) يحمد ابن الوردي الله تعالى على نسبه الذي يرجع إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٤) الشطر الأول من هذا البيت مروي عن علي رضي الله عنه.



اكتـمِ الأمْـرَيْـنِ فقـراً وغنًـى
واكسبِ الفِلْسَ وحاسِبْ مَنْ بَطَلْ
وادَّرِعْ جِـدّاً وكـدّاً واجْتَنِـبْ
صحبةَ الحمقى وأربابَ الخَلَلْ[1]
بيـنَ تبـذيـرٍ وبُخْـلٍ رتبـةٌ
وكـلا هـذيـن إنْ دامَ قَـتَـلْ

* * *

لا تخضْ في سبٍّ ساداتٍ مَضَوا
إنَّهـم ليسـوا بـأهْـلٍ للـزَّلَـلْ
وتغـافـلْ عـنْ أمـورٍ إنَّـه
لْـم يَفُـزْ بـالحمـدِ إلا مَـنْ غَفَـلْ
ليـسَ يخلـو المـرءُ مـنْ ضـدٍّ وإنْ
حـاولَ العـزلـةَ فـي رأسِ الجَبَـلْ
مـلْ عـنِ النَّمَّـامِ واهجـرْهُ فمـا
بلَّـغَ المكـروهَ إلا مَـنْ نَقَـلْ

---

(١) ادَّرِع: فعل أمر من: ادَّرَعَ ، إذا لبس الدرع.

دَارِ جارَ السوءِ بالصبرِ وإنْ
لم تجدْ صبراً فما أحْلى النُّقَلْ

* * *

جانِبِ السُّلطانَ واحذرْ بطشَهُ
لا تعاندْ من إذا قالَ فَعَلْ
لا تلِ الحكمَ وإنْ همْ سألوا
رغبةً فيكَ وخالفْ منْ عَذَلْ
إنَّ نصفَ النَّاسِ أعداءٌ لمنْ
وَلِيَ الأحكام هذا إنْ عَدَلْ
فهْوَ كالمحبوسِ عنْ لذَّاتِه
وكِلا كفَّيْهِ في الحَشْرِ تُغَلْ[1]
لا تُساوى لذةُ الحكمِ بما
ذاقَهُ المرءُ إذا المرءُ انْعَزَلْ
فالوِلاياتُ ـ وإنْ طابَتْ لمنْ
ذاقَها ـ فالسُّمُّ في ذاكَ العَسَل

---

(١) تغل: الغل: وضع القيد في اليد.



نَصَبُ المنصِبِ أوهى جسدي
وعنائي من مُداراةِ السَّفَلْ[(١)]

* * *

قصِّرِ الآمالَ في الدنيا تَفُزْ
فدليلُ العَقْلِ تقصيرُ الأَمَلْ
إنَّ مَنْ يطلبُه الموتُ على
غرَّةٍ منه ، جديرٌ بالوَجَلْ[(٢)]

* * *

غِبْ ، وزُرْ غِبّاً تزدْ حبّاً فَمَنْ
أكثرَ الترْدادَ أقصاهُ المَلَلْ[(٣)]
لا يضرُّ الفَضْلَ إقلالٌ كما
لا يضرُّ الشمسَ إطباقُ الطَّفَلْ[(٤)]

* * *

---

(١) **نَصَبُ المنصب**: أي تعبه وعناؤه ، **والسفل**: أراذل الناس.

(٢) **غرة**: الغرة ، هي الغفلة ، **والوجل**: الخوف.

(٣) المراد: أن لا يكثر الإنسان زيارة من يحبُّ ، حتى لا يؤدِّي ذلك إلى مللهم.

(٤) **الطَّفل**: الشمس عند الغروب ، والمعنى: أن صاحب الفضل لا يضره أن يكون قليل المال ، كما لا يقلل من شأن الشمس كونها عند الغروب.



خـذْ بنصـلِ السَّيـفِ واتْـركْ غِمـدَه
واعتبرْ فَضْلَ الفتى دونَ الحُلَلْ(١)

* * *

حبُّـكَ الأوطـانَ عجـزٌ ظـاهـرٌ
فـاغتـربْ تلـقَ عـن الأهـلِ بَـدَلْ
فبمكـثِ المـاءِ يَبْقـى آسنـاً
وسُـرى البـدرِ بـه البـدرُ اكتمـلْ(٢)

* * *

أيُّهـا العـائـبُ قـولـي عـابثـاً
إنَّ طيـبَ الـوَرْدِ مـؤذٍ بـالجُعَـلْ(٣)
لا يَغُـرَّنَّـكَ ليـنٌ مِـنْ فتًـى
إنَّ للحيَّـاتِ لِيْنـاً يُعْتَـزَلْ
أنَـا مثـلُ المـاءِ سهـلٌ سـائـغٌ
ومتـى سُخِّـنَ آذى وقتَـلْ

---

(١) **الحلـل**: جمـع حلـة ، والمعنـى: النظـر إلـى الحقـائـق لا إلـى المظاهر.

(٢) **آسناً**: أي متغير الطعم واللون والرائحة. **والسُّرى**: السير ليلاً.

(٣) **الجعل**: دويبة تعيش في الزبل والروائح الكريهة ، وتتأذى من الرائحة الطيبة.



أنـا كـالخيـزورِ صعـبٌ كسْـرُه

وهـو لَيْـنٌ كيفمـا شِئْـتَ انْفَتَـلْ[(١)]

غيـرَ أنـي فـي زمـانٍ مـنْ يَكُـنْ

فيـه ذا مـالٍ هـو المـولـى الأَجَـلّ

واجـبٌ عنـدَ الـوَرَى إكـرامُـه

وقليـلُ المـالِ فيهـم يُسْتَقَـل[(٢)]

كـلُّ أهـلِ العصـرِ غمـرٌ وأنـا

منهم ، فاتركْ تفاصِيلَ الجُمَلْ[(٣)]

* * *

(١) **الخيزور**: شجر الخيزران ، وقضبانه قوية رغم لينها.

(٢) **وقليل المال فيهم يستقل**: أي إن الفقير فيهم لا قيمة له ، فلا يقدر ولا يحترم.

(٣) **غمر**: قليل التجربة ، جاهل ، فالشاعر يرى جميع أهل عصره أغرار ، غلب فيهم الشر وقلَّ الخير ، ولم يرد تزكية نفسه ، فعدَّ نفسه واحداً منهم ، ولم يرغب في التفصيل في هذا الجانب ، ولذلك طلب من المخاطب ترك تفصيل هذا الإجمال.



الفَصْلُ الثَّانِي



من حِكَم الإمام ابن القيم



• من لم ينتفعْ بعينه ، لم ينتفع بأذنه .

• أعظم الربح في الدنيا ، أن تشغل نفسَك كلَّ وقت بما هو أولى بها وأنفع لها في معادها .

• من عَظُم وقار الله في قلبه أن يعصيه ، وقَّره الله في قلوب الخلق أن يذلوه .

• كفى بك عزّاً أنك له عبدٌ ، وكفى بك فخراً أنه لك ربٌّ .

• الذنوب جراحات ، ورُبَّ جرح وقع في مقتل .

• طائر الطبع يرى الحبَّة ، وعين العقل ترى الشَّرَك ، غير أنَّ عين الهوى عمياء .

• ما مضى من الدنيا أحلام ، وما بقي منها أماني ، والوقت ضائع بينهما .



• الغاية أول في التقدير ، آخر في الوجود ، مبدأ في نظر العقل ، منتهى في منازل الوصول .

• إنَّما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور .

• قوة الطمع في بلوغ الأمل : توجب الاجتهاد في الطلب .

• البخيل فقير لا يؤجر على فقره .

• استوحش ممَّا لا يدوم معك ، واستأنس بمن لا يفارقك .

• أوثق غضبك بسلسلة الحلم، فإنَّه كلب إن أفلت أتلف .

• أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه ، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس .

• كم جاء الثواب يسعى إليك ، فوقف بالباب ، فردَّه بوَّاب «سوف ولعل وعسى» .

• إذا رأيتَ الرجل يشتري الخسيس بالنفيس ، ويبيع العظيم بالحقير ، فاعلم بأنه سفيه .

• لولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العجب .

• ذنب يذلُّ به ، أحبُّ إليه من طاعة يدلُّ بها عليه .

• ليس العَجَبُ من فقير مسكين يحبُّ محسناً إليه ، إنَّما العجب من محسن يحبُّ فقيراً مسكيناً .



● اعرف قدر ما ضاع منك، وابكِ بكاءَ من يدري مقدار الفائت.

● من استطال الطريق ، ضعف مشيُه.

● من لاح له حال الآخرة ، هان عليه فراقُ الدنيا.

● الجنة ترضى منك بأداء الفرائض ، والنار تندفع عنك بترك المعاصي.

● أبعد القلوب عن الله القلب القاسي.

● إذا قسا القلب قحطت العين.

● خراب القلب من الأمن والغفلة ، وعمارته من الخشية والذكر.

● من شُغل بنفسه شُغل عن غيره ، ومن شُغل بربِّه شُغل عن نفسه.

● الإخلاص هو ما لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا عدد فيفسده ، ولا يعجب به صاحبه فيبطله.

● الرضا سكون القلب تحت مجاري الأقدار.

● اتباع الهوى وطول الأمل مادة كلِّ فساد ، فإنَّ اتباع الهوى يعمي عن الحقِّ ، وطول الأمل يُـنْسي الآخرة.

● إذا أراد اللهُ بعبد خيراً ، جعله معترفاً بذنبه ، ممسِكاً



عن ذنب غيره ، جواداً بما عنده ، زاهداً فيما عند غيره .

• أغبى الناس من ضل في آخر سفره ، وقد قارب المنزل .

• صحة الاقتداء بالرسول لقاح الإخلاص ، فإذا اجتمعا أثمرا قبول العمل .

• لو احتميتَ ساعةً لم تحتج إلى معالجة الدواء مدةً .

• من ركب ظهر التفريط والتواني ، نزل به في دار العسرة والندامة .

• الجدُّ كلُّه حركة ، والكسل كلُّه سكون .

• الحيوان البهيم يتأمَّل العواقب ، وأنت لا ترى إلا الحاضر .

• الدنيا والشيطان عدوَّان خارجان عنك ، والنفس عدوٌّ بين جنبيك ، وسنة الجهاد : ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾ .

• لو فكَّر الطائر في الذبح ما حام حول القمح .

• لا تحتقر معصية ، فكم أحرقت شرارة .

• العلم والعمل توءمان أمُّهما علوُّ الهمة ، والجهل والبطالة توءمان أمُّهما إيثار الكَسَل .

• ليس العالِم شخصاً واحداً ، العالِم عالَم ، تصانيف العالِم أولاده المخلَّدون دون أولاده .



• غاب الهدهدُ عن سليمانَ ساعةً فتوعَّده ، فيا من أطالَ الغيبةَ عن ربِّه هل أمنتَ غضبه؟! .

• سلعة ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ لا تُبذل إلا بثمن ﴿ لِمَن تَابَ ﴾ .

• إن لم تقدر على الجدِّ في العمل ، فقف على باب الطلب .

• لا تحقرن يسير المعصية ، فهو كالعشب الضعيف يفتل منه حبال تجر السفن .

• العمر ثوب غير مكفوف ، وكل نَفَس خيط يسلُّ منه .

• كان التصوُّف في مواطن القلوب ، فصار في ظواهر الثياب .

• الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب .

• قبول المحلِّ لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضدِّه .

• لو نفع العلم بلا عمل ، لما ذمَّ الله سبحانه أحبار أهل الكتاب ، ولو نَفَعَ العملُ بلا إخلاص ، لما ذمَّ المنافقين .

• الدنيا مجازٌ ، والآخرة وطنٌ ، والأوطار إنما تطلب في الأوطان .

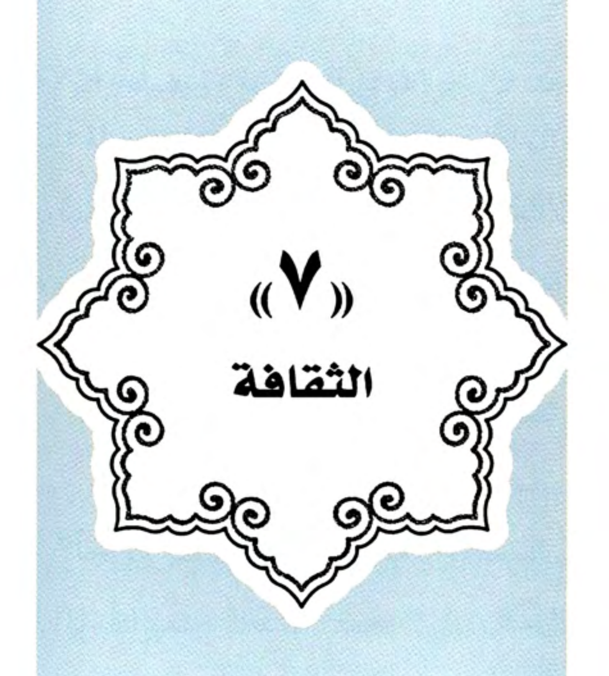
• الشَّيْبُ زاجر ورادع ، وموقظ قائم بك .

• سبحان الله ، كم بكت في تنعُّم الظالم عينُ أرملة ، واحترقت كبد يتيم ، وجرت دمعة مسكين : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ

قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦] ، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [صٓ: ٨٨].

• لا تحتقر دعاء المظلوم؛ نبال أدعيته مصيبة وإن تأخر الوقت ، وأستاذه صاحب (**لأنصرنك ولو بعد حين**).

* * *



«٧»

الثقافة



الثقافــة



لم أجد في خواطري المكتوبة ما يصلح أن يكون تحت هذا العنوان ، سوى مقال كنت نشرتُه في مجلة «الشقائق» .

وكان المقال تعقيباً على أحد معارض الكتب .

فقد استضافت إحدى المحطات التلفزيونية مديراً لدار نشر كبرى ، وكان من جملة ما طرحتْ عليه من الأسئلة :

ـ كم تطبعون من الكتاب؟ .

ـ قال المدير : ثلاثة آلاف ، أو ألفين .

ـ قال المحاور : ما هي الكتب الأكثر رواجاً؟ .

ـ قال المدير : هما صنفان يتميزان بإقبال الناس عليهما : المعاجم ، وكتب الطبخ .

قلت : حُقَّ لنا أن نقول : بخٍ ، بخٍ ؛ لأمة أصبحت الثقافة المفضلة لديها هي ثقافة البطون ، وكنا نتمنَّى لو كانت هناك إحصاءات دقيقة تبين لنا من خلال خط بياني درجة اهتمام



القارئ العربي والمسلم بكل نوع من فنون الثقافة . .

علماً بأن «الإحصاء» نفسه من السنن التي سنَّها الرسول ﷺ وأهملها المسلمون.

ولكن لماذا نعوِّل على كتب الطبخ وانتشارها كمؤشر على الاهتمامات التي تشغل الناس ، أليس هناك مؤشر آخر أكثر بياناً ، وأثبت حجة من الكتب؟ بلى ، إن مساحة المطبخ في كلِّ بيت ، وتعداد الأدوات التي تزدحم فيه، بل وربما كان بعضها فوق بعض، لتدل دلالة واضحة على مدى سلطة البطون على كثير من الناس.

وكنا نتمنى مرة أخرى ، لو كانت هناك إحصاءات تبين لنا مكانة الطعام في سلم اهتمامات الناس في أيامنا هذه.

لا شك بأن الطعام مثله مثل اللباس والمسكن حاجة من الحاجات الرئيسة، التي بواسطتها تستمر حياة الإنسان، ولابد من السعي في تحصيلها ، ولكن الإشكال أن ينتقل «الطعام» من كونه وسيلة ليصبح غاية لذاته ، وهنا يكمن الخطر.

وهذا ما يذكرنا بالرومان الذين أصبح الطعام لدى بعضهم غاية لذاته ، فكانوا يأكلون ويتقيؤون ، ثم يأكلون بغية الحصول على لذة الطعام.

إن الطعام وسيلة، وينبغي أن يبقى كذلك، ولهذا المعنى



كانت السُّنَّة عدم ملء البطن والوصول إلى حدِّ الشبع .

وتصف عائشة رضي الله عنها حال النبيِّ ﷺ في أمر الطعام فتقول: كان النبيُّ ﷺ يأتيني فيقول: (**أعندك غداء؟**) فأقول: لا ، فيقول: (**إني صائم**).

وقال الحسن البصري رحمه الله: خطب رسول الله ﷺ فقال: (**والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام وإنها لتسعة أبيات**). قال الحسن: والله ما قالها استقلالاً لرزق الله ، ولكن أراد أن تتأسَّى به أمته .

ولقد تأسَّى به أصحابه رضي الله عنهم ، وخير من ينقل لنا حديثهم الحسن البصري الذي قال: «أدركتُ صدر هذه الأمة وخيارها ، وطال عمري فيهم . . أدركتُهم عاملين بكتاب ربِّهم ، متَّبعين سُنَّة نبيهم ، ما طوى أحدهم ثوباً ـ أي ليس له ثوب آخر حتى يطويه ـ ولا أمر أهله بصُنع طعام ، كان أحدهم يدخل منزله ، فإذا قرِّب إليه شيء أكل ، وإلا سكت فلا يتكلَّم في ذلك» .

ولقد كان من اهتمامات الخلافة مراقبة هذه الجوانب في حياة الأمة ، خوفاً من سيطرة الشهوات على النفوس .

فقد مرَّ جابر بن عبد الله ـ ومعه لحم ـ على عمر بن



الخطاب ، رضي الله عنه وعن جابر ، فقال : ما هذا يا جابر ؟ .

قال : هذا لحم اشتهيتُه ، فاشتريتُه .

قال عمر : أَوَ كلَّما اشتهيتَ شيئاً اشتريتَه ، أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف : ٢٠]؟ ! .

ومن هذا المنطلق ، رأى الإمام الغزاليُّ : أن على الأب أن يعوِّد أبناءه في بعض الأوقات على الخبز القفار ـ اليابس ـ وحده ، حتى لا يصير وجود الإدام عندهم حتماً وعادة .

وأخيراً ، فليست الغاية عند ذكر هذا الجانب من سيرته ﷺ مطالبة الناس بالارتقاء إلى هذه المنزلة السامية ، فذلك أمر يحتاج إلى تربية طويلة وإرادة حازمة ، وإنما الغاية أن يحاول الفرد تحقيق المبدأ في حياته ، فلا تكون قضية الأكل هي الشاغل الأهم ، ومن أجل ذلك أقول :

لو رجع رجل إلى منزله ، ووجد زوجته قد شُغلت عن إعداد الطعام ، فهل عنده استعداد أن يحافظ على هدوئه ، ويكتفي بالخبز والزيت ، أو الخبز والخل مثلاً ، أو بما هو موجود؟ ! .

وهل حاولت المرأة تخصيص يوم في الشهر مثلاً ليكون يوم تقشُّف يقتصر فيه على الخشن من الطعام؟! .

وهل حاول الرجل وقد رأى فاكهة شهية ، مالتْ إليها نفسه ، وهو واجد لثمنها ، أن يمتنع عن شرائها ، لا من باب البخل ، بل من باب كبح جماح النفس عن شهواتها ، ووقوفاً عند قوله تعالى : ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات : ٤٠]؟! إذا حصل هذا أو بعضه . . فذلك بداية الطريق .





«٨»

خواطر اقتصادية



وحــدة المقاييــس

جاء في «الموطأ» عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ مسكيناً وقف على بابها، وبين يديها عنب، فقالت لإنسان كان عندها: خُذ حبَّةً فأعطِه إياها، فجعل ينظر إليها، ويعجب من قولها، فقالت عائشة: أتعجب من قولي، فكم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة؟[1].

إنَّه درس للأمة في لَفْتِ النَّظر إلى المقياس الإسلاميِّ الذي سيحاسب الناس بموجبه يوم القيامة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة].

وهذا المقياس ليس للآخرة فحسب، وإنَّما هو مقياس

(١) الموطأ، كتاب الصدقة، باب (١)، الحديث (١٨٧٩).



للدنيا ، يزنُ المسلم عمله به ، وهو نُصْب عيني المسلم طول حياته .

ونعتقد أن هذا المقياس يغني عن كلِّ مقاييس الطول والحجوم والأوزان ، وهو أدقُّ المقاييس ، بما فيها «الميكرون» وما دونه وما فوقه .

نعم إنَّه درس من أمِّ المؤمنين عائشة تلفت فيه النظر إلى هذا المقياس ، حتى يكون في ذاكرة كلِّ مسلم ، وهو تفسير لما جاء في سورة الزلزلة .

أقول هذا حتى لا يُظَنَّ البخلُ بأم المؤمنين ، وهي تتصدق بعنبة واحدة .

فقد أخرج ابن سعد: من طريق أم درَّة قالتْ: أُتِيَتْ عائشةُ بمئة ألف ، ففرَّقَتْها وهي يومئذ صائمة ، فقلتُ لها: أمَا استطعتِ فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه؟ قالت: لو كنتِ أذكرتِني لفعلتُ[1] .

لقد نَسِيَتْ نفسها وهي صائمة وليس عندها ما تفطر عليه ، ووزعت مئة ألف .

وباعتْ يوماً داراً لها وتصدَّقت بثمنها . . حتَّى عتب

---

(١) «الإصابة» عند ترجمتها .



عليها في ذلك ابن أختها عبد الله بن الزبير ، والقصة معروفة رواها البخاري[١] .

فهل بعد هذا الكَرَم من كَرَم؟! .

أما قصة «العنبة» فهي درس عملي لتثبيت مفهوم من المفاهيم التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم كثيراً . . فكان التفسير العملي هو الطريقة الأمثل لبيانه .

* * *

(١) رواه البخاري (٦٠٧٣).





الأشيـــاء المتروكــة

قال قتادة: كان عمر رضي الله عنه ـ وهو خليفة ـ يلبس جبَّـةً مـن صـوف مـرقـوعـة، بعضهـا بـأدم، ويطـوف بالأسواق، يؤدِّب الناس، ويمرُّ بالنكث[1] والنوى، فيلقطه، ويلقيه في منازل النَّاس لينتفعوا به[2].

وهذا الخبر يستوقف القارئ في أكثر من مكان.

والمقصود منه هنا ـ في هذه الخواطر ـ هو القسم الأخير منه.

أمير المؤمنين يلتقط «النوى» و«الخيوط» من الطريق، ثم يلقيها في منازل النَّاس التي في طريقه، وكانت جدران الدور يومئذ منخفضة..

---

(١) هي الخيط الخلق من صوف وغيره.
(٢) كنز العمال (٣٥٩٤١).



والنوى ينتفع به وقوداً أو علفاً للدواب ، والخيوط ينتفع بها في حياكة بعض البُسُط .

وفعلُ عمر رضي الله عنه ، لعله أول عمل في دنيا الواقع يعلِّم النَّاسَ فيه الاستفادة من المادة المهدرة ، والاستفادة منها مهما كانت قليلة أو زهيدة .

فهذا الفعل فيه تقليل من حجم «القمامة» الملقاة في الطريق .

وفيه الاستفادة من المادة الضائعة . . وحينما يحسب حساب مثل هذه الأمور على مستوى الأمة ، فإنَّها تشكل «كمّاً» كبيراً .

وعرفت الدول «المتقدمة» حديثاً فرز أوعية القمامة ؛ وجعل بعضها للورق ، وبعضها للزجاج ، وبعضها للألبسة . . ممَّا يسهِّل الاستفادة منها في الصناعات التحويلية .

* * *

ومن هذا المنطلق أفتى العلماء بجواز الاستفادة من شعور الحُجاج التي تجتمع في «منى» عند تحلُّل الحجاج . .
الاستفادة بأن تصنع الحبال منها . . وهكذا لا يجتمع الشعر ليشكل عبئاً على القمامة ، بل يتحول إلى مادة يستفاد منها .



وبهذا تكون الفائدة مضاعفة بالانتقال من السالب إلى الموجب.

فالقمامة تكلف المبالغ الطائلة للتخلُّص منها.. بينما عندما يُستفاد منها، فإنَّها توفر تلك المبالغ.. وتضيف دخلاً آخر.

* * *



أولويـــات

لما حضرت أبا بكر رضي الله عنه الوفاة ، نظر إلى ثوبٍ عليه ، كان يمرض فيه ، به ردع من زعفران ، فقال: اغسلوا ثوبي هذا ، وزيدوا عليه ثوبين، فكفنوني فيها، قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ هذا خَلِق؟ قال: إنَّ الحيَّ أحقُّ بالجديد من الميت ، إنما هو للمهلة[١] .

إنَّ الحيَّ أحقُّ بالجديد من الميت . .

رحم الله أبا بكر ورضي الله عنه ، فإنَّه يضع بهذه الكلمة قاعدة . . هي أن نكون على وعي في كلِّ تصرفاتنا أن تكون وفقاً لسلَّم الأولويات .

وهي مع الأسف قاعدة غائبة في معظم تصرفاتنا عن ملامسة الواقع والتطبيق العملي .

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٧).



ولقد كانت هذه القاعدة ـ لمكانتها ـ في مقدمة العهد الذي وصى به الخليفةَ الأول عمرَ بن الخطاب عندما اختاره ليكون الخليفة من بعده فقال:

«واتَّقِ الله يا عمر، واعلم أنَّ لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار.

وأنَّه لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة..»[1].

إنه درس ليس في الاقتصاد فحسب، وإنما في كلِّ شؤون الحياة، وليتنا نحسن الاستفادة منه، فنضعه في المنهج الدراسيِّ يحفظه أبناء الأمة جميعاً.. فهو ليس دستور خلافة.. ولكنه دستور حياة.

* * *

(١) انظر هذه الوصية كاملة في كتاب: هكذا فهم الصحابة، ص ١٦٩، نشره المكتب الإسلامي.





الدَّيْـــن

كـره رسـول الله ﷺ أن يستقـرض المسلـم المـال مـن الآخرين إلا للحاجات الملحَّة التي لا غنى للإنسان عنها . . كالطعام الذي يسدُّ الرَّمَق، واللباس الذي يستر الجسم، والدواء الذي يعالج المرض.

ولهذا كان ﷺ لا يصلِّي على الميت الذي عليه دين ، ويقول للصحابة رضي الله عنهم : **(صلوا على صاحبكم)**.

وفي آخر عهده ﷺ حيث وسَّع الله على المسلمين قال : **(من ترك مالاً فلورثته ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فأنا مولاه)**.

فكان النبيُّ ﷺ يوفي دَيْن من مات وعليه دَيْن.

واستمرَّ هذا في عهد الخلافة الراشدة ، ثم في عهد عمر بن عبد العزيز . .

ثم ترك هذا الأمر ، ولكن بقيت آثارُه في بعض بلدان



المسلمين حيث عندما يغسل الميت، يسأل الغاسل فيقول: هل عليه دَيْن، فإن كان عليه دَيْن يطلب من يتعهد بوفائه.. ولقد أدركتُ هذا ورأيته.

فالميت يبقى مرهوناً بدينه حتَّى يوفَّى، والأحاديث النبوية في هذا كثيرة، وفيها من التحذير ما فيها، حتَّى إنَّ الشهيد تغفر ذنوبه إلا الدَّيْن.

وعندما ننظر في هذا الأمر الذي حذَّر منه النبيُّ ﷺ، فإنَّه صلاح للأمة، لأنه في ظل هذه الأوامر بات المسلم يعيش ضمن حدود إمكاناته، فلا يفكر برفاهة العيش على حساب الآخرين.

ولقد كان بعض السلف يطوي على الجوع ولا يذلُّ نفسه بالاستعانة بالآخرين.. حتى باتَتِ الجملة التالية: «الدَّين همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار» مثلاً يتداوله الناس.

ومع ذلك:

أن تستدين من غيرك تحت عامل الحاجة والضرورة فلا بأس..

أما أن تكون الاستدانة لتنفق في طلب الرفاهية،



والسعي وراء متع الحياة . . فهو الأمر الذي يقف العاقل أمامه حائراً مشدوهاً .

ففي أيامنا هذه أصبح من الأمور المتداولة ، والتي لم تعدْ قاصرةً على فرد .

* * *





بمقدار الحاجة

جاء في صحيح الإمام مسلم :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : **(فراش للرجل ، وفراش لامرأته ، والثالث للضيف ، والرابع للشيطان)** .

وقد استوقفني ـ وأنا أقرأ هذا الحديث ـ القسم الأخير منه ، وهو قوله ﷺ : **(والرابع للشيطان)** .

والحديث هنا عن «الفراش» إنما هو «مثال» لكل الحاجات الأخرى التي تكون زائدة عن الحاجة .

وعندما ننظر في كثير من بيوتنا نجد أشياء كثيرة أعددناها للشيطان ونحن لا نشعر .

ولا أريد هنا إطالة الحديث وضرب الأمثلة ، ولا أريد



بيان المقصود بـ «الشيطان» ؛ إذ كلنا نعرف أن الشيطان رمز للشر.

ولكني ألفتُ النظر إلى تأمل هذا النص الكريم. وأن يكون السؤال التالي قائماً في أذهاننا عند شراء حاجة ما :

هل شراؤها لسداد حاجة من الأقسام الثلاثة الأولى ، أم هي من القسم الرابع . . ؟! .

* * *




((٩))
الروضة النبوية
الشريفة



الروضة النبوية الشريفة



جاء في الحديث المتفق عليه قوله ﷺ: (**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**).

هذه البقعة المباركة من المسجد النبوي الشريف، كانت ألصق بقاع الأرض بجسده الشريف ﷺ، فهي بين بيته ومنبره أو محرابه الذي كان يؤم الناس فيه كل يوم خمس مرات، فهي طريقه إلى الصلاة جيئةً وذهاباً.

ولهذا كان لها الفضل على بقية بقاع المسجد الشريف.

قال في «فتح الباري» عند شرحه لقوله ﷺ: (**روضة من رياض الجنة**):

«أي كروضة من رياض الجنة في نزول الرحمة وحصول السعادة، بما يحصل من ملازمة حلق الذكر، لا سيما في عهده ﷺ، فيكون تشبيهاً بغير أداة.

أو المعنى: أن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة، فيكون مجازاً.



أو هو على ظاهره، وأن المراد: أنه روضة حقيقية ، بأن ينتقل ذلك الموضع بعينه في الآخرة إلى الجنة.

هذا محصل ما أوله العلماء في هذا الحديث» اهـ.

ولهذه المعاني كان حرص كل مسلم وصل إلى المسجد النبوي الشريف أن يصلي ما كُتب له في هذا المكان الشريف.

وهذا ما يفسر لنا شدة الازدحام في هذه البقعة المباركة.

على أن هذا الازدحام ليس سببه المصلون ، بل الذين جلسوا يقرؤون القرآن الكريم! وقد يجلس الواحد منهم الساعة والساعتين.

ومنذ سنوات أتيح لي زيارة المسجد الشريف ، وبعد الصلاة فيه ، والسلام على النبي ﷺ وصاحبيه ، اتجهت إلى الروضة الشريفة لصلاة ركعتين ، وهناك ـ كما هو معروف ـ ممر يسلكه من أراد الصلاة فيها ، وهو في وسطها ، يدخله الناس من الجهة الشمالية متجهين إلى القبلة ، ويفتش الداخل أثناء مروره فيه عن يمينه وعن شماله عن فراغ يصلي فيه ، وينتهي هذا الممر بالقوس النحاسي الأصفر البراق حيث المخرج.

ودخلت ـ في جملة الناس ـ ذلك الممر ، الذي كان ضيِّقاً جدّاً ، بسبب ازدحام الناس إذ كان عرضه أقل من متر



واحد ، والذين هم في الممر يميلون يميناً وشمالاً يكاد الواحد يقع فوق المصلين أو الجالسين لكثرة من فيه ، وفتشت أثناء مروري عن مكان فلم أجد.

وكثير من الناس يدخلون هذا الممر، ثم يخرجون دون تحقيق أمنيتهم في الصلاة ، وكدت أصل إلى المخرج عندما وقع نظري على فراغ صغير بين رجلين جالسين متربعين ، فاتجهت إلى المكان قائلاً في نفسي: إذا جلس كل منهما جلسة المصلي ، فإن المكان يتسع لي.

ولما وصلت لمست كتف أحدهما لمساً خفيفاً ، فنظر إلي ولم يحرك ساكناً ، فلمست كتفه مرة أخرى وأشرت إليه أن يفسح قليلاً ، فلم يستجب ، وهنا ارتفع صوتي وقد تملكني الغضب بعد الغيظ الذي كان احتقن في صدري من هؤلاء الجالسين في الروضة والذي يزيد عددهم على (٨٠٪) من الموجودين فيها. . قلت: أما يريد أحدكم أن يفسح المجال لأخيه ليصلي ركعتين؟!. . وفسح أخيراً. . وصليت ركعتين. . أعتقد أني لم أعقل منهما شيئاً. . وغادرت المكان، ناقماً على نفسي ارتفاع صوتي في المكان الذي أمرنا أن نخفض فيه من أصواتنا. . وندمت وتمنيت أني تابعتُ طريقي في الممر ، كما فعل بعض من كان فيه. .

وما زلت كلما تذكرت هذه الحادثة أشعر بالذنب. . غفر الله لي وعفا عني.

وجلست في جانب من المسجد بعد ذلك ، فإذا بنظري يقع على الشرطي الواقف أمام الحجرة الشريفة ، وذهب بي الخيال: لو أن هذا الشرطي خطا خطوات إلى يمينه وأطل على أولئك الجالسين في الروضة ، وأشار إليهم بإصبعه أن يغادروا المكان ؛ فماذا سيكون الحال؟! لا شك بأن المكان سيكون خالياً إلا من المصلين في أقل من خمس دقائق. . وعندها سيجد الناس مكاناً لصلاتهم.

إن هؤلاء الجالسين لقراءة القرآن الكريم ، يمكنهم فعل ذلك في أي مكان من المسجد ، ولكنهم يحرصون على الفضيلة وإن كان ذلك على حساب ظلم الآخرين حقهم.

إن هذا المكان الطاهر ، لا ينبغي أن يستأثر به أحد ، فلكل مسلم حق أن يأخذ حظه منه في صلاة ركعتين ، ولا يتاح له ذلك حتى يُمْنَعَ الجالسون فيه من ذلك.

ولكن أين إصبع الشرطي التي ستشير إليهم بذلك؟. . ومتى سيكون ذلك؟. .

ولكن أليس من المؤسف أن يصل وضع بعض المسلمين



إلى أن لا يبادروا إلى ما ينبغي عليهم إلا بإشارة الشرطي أو من هو في مقام الشرطي؟!.

وأعود لأتحدث عن نفسي ، فقد أخذت من تلك الواقعة درساً بليغاً ، ولقد زرت المدينة المنورة عدة مرات بعدها ، وأصبح دأبي إذا كنت في المسجد الشريف أن أذهب إلى الروضة فأنظر هل من مكان أصلي فيه ركعتين؟..

ولكني حتى كتابة هذه الأحرف لم أجد ذلك المكان ، وأنا بانتظار إصبع الشرطي..

* * *



الخاتمة



قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى:

قد أحزن عندما أبذل جهدي ثم لا أرى الثمرة المرتقبة، ومع ما يخامرني من ضيق فإنَّ ضميري يكون مستريحاً، وحسابي لنفسي لا يصحبه ندم أو خِزْي، وقد يجري على لساني قول القائل: «صحَّ مني العزمُ والدهر أبَى» وحسبي ذلك تأساء وتعزية.

والأمر على العكس تماماً عندما أُفرط فأجني الخسار، وعندما أسيءُ البَذْر والحَرْث فأجد الحصاد الرديء؛ فلا مكان هنا لاعتذار، ولا تُقبل المكابرة من مكابر.

بهذا المنطق العادل أُريد أن يحاسب المسلمون أنفسهم.

إنهم أُمة دعوة عالمية، فما الذي قدَّموه لهذه الدعوة على الصعيدَين المحلي أو الدولي؟.



ومحمد نبيهم رحمةٌ للعالمين ؛ فما مَجْلَى هذه الرحمة العامة فيما يسود العالم من أفكار وفلسفات ومذاهب؟ .

ليس هناك جهد إسلامي واضح لخدمة الرسالة الخاتمة وتبصرة الناس بما فيها من حق وخير ، بل الذي يقع داخل الأرض الإسلامية يثير الريب حول القيمة الإنسانية لرسالة الإسلام ومدى انتفاع أهل الأرض منها، وتلك مصيبة طامة ، أن يعمل الإنسان ضد نفسه وسُمعته! وسواءٌ دَرَى أم لم يَدْرِ فتلك نتيجةٌ تَسْوَدُّ لها الوجوه! .

والسنوات الأُولى من القرن الخامس عشر للهجرة ضمَّت في أضوائها هزائم قابضة ، ذكرتني بـ«ابن كثير» وهو يصف همجية التتار في اجتياح بغداد ، وعواصف الدمار التي هبت على العالم الإسلامي يوم ذاك ، وأين المؤرخ الكبير ، وهو يقول: ليت أُمي لم تلدني لأشهد هذه الأحداث الجسام! .

إننا عشنا لنر دَكَّ مدن عظام، وتمزيق أُمة كبيرة، وغيبوبة الوعي الإسلامي بإزاء آلام تُحَرِّكُ الرواسي! .

ومع النشاط الهائل الذي يسود جبهة الأعداء فقد رأيتُ بني قومي لا يزالون يمضغون خلافات جوفاء ، وتسيطر



عليهم أفكار ضحلة، وتسيِّرهم أهواءٌ قاتلة، وشهوات غبية!.

ومن حقي وأنا أحد المشتغلين بالدعوة الإسلامية أن أُصرِّح بأشجاني وأنْ أبث همومي، إنه هم، وثان، وثالث..!.

أحياناً نتحرك في موضعنا، وأحياناً نسير في طريق مسدود، وأحياناً نضرب عن يمين وشمال **وكأن بيننا وبينَ الصراط المستقيم خصومة!**.

في عالم يبحث عن الحرية؛ نصوِّر الإسلام دين استبداد.

وفي عالم يحترم التجربة، ويتبع البرهان؛ نصوِّر الدين غيبيات مستوردة من عالم الجن، وتهاويل مبتوتةَ الصلة بعالم الشهادة.

وفي عالم تقارب فيه المتباعدون ليحققوا هدفاً مشتركاً فلا بأس أن يتناسوا أموراً ليست ذات بال، في هذا الوقت ترى ناساً من الدعاة يجترُّون أفكاراً بشرية باعدت بين المسلمين من ألف عام، ليشقُّوا بها الصف ويمزقوا بها الشمل!.



إنَّ الثقافة الإسلامية المعروضة تحتاج إلى تنقية شاملة ، وإنَّ الدعاة العاملين في الميدان التقليدي يجب أن يُغَرْبلوا ، لنعدمَ السَّقَط ، وننفي الغَلَط[1] .

* * *

(١) كانت هذه مقدمة كتاب «هموم داعية».





المحتوى



• المقدمة ٥

• بين يدي الكتاب ٧

(١) واقع المسلمين ٩

(٢) المبادرة بالأعمال ٢١

١ ـ المبادرة بالعمل ٢٣

٢ ـ الأمل والتسويف ٢٨

٣ ـ اغتنام الفرص ٣٥

(٣) صلاح الفرد ٣٩

ـ **تمهيد** ٤٠

ـ **الفصل الأول**: الفطرة والعقل هما البوصلة ٤١

ـ **الفصل الثاني**: في ظلال الأمر والنهي ٤٣

ـ **الفصل الثالث**: معرفة الشر ٤٨

ـ **الفصل الرابع**: الحذر من الشيطان ٥٣



- **الفصل الخامس**: مراقبة النفس ٦١
- **الفصل السادس**: الإمساك عن الشر ٦٦
- **الفصل السابع**: محاسبة النفس ٦٩

(٤) **المصلحون** ٧٥

- **تمهيد** ٧٧
- **الفصل الأول**: قواعد عامة في الدعوة ٧٩
- **الفصل الثاني**: طريقة النبي ﷺ في الدعوة ٨٥
- **الفصل الثالث**: صفات الداعية ٩٠

(٥) **الآداب الاجتماعية** ١٠٥

- **تمهيد** ١٠٧
- **الفصل الأول**: العناية بالمظهر الخارجي ١٠٩
- **الفصل الثاني**: السمت الحسن ١١٩
- **الفصل الثالث**: أدب اللقاء ١٢٤
- **الفصل الرابع**: أدب الزيارة ١٣٠

(٦) **الأخلاق** ١٣٧

- **تمهيد** ١٣٩
- **الفصل الأول**: لامية ابن الوردي ١٤٣
- **الفصل الثاني**: من حِكَم الإمام ابن القيم ١٥٥



(٧) **الثقافة** ١٦١

(٨) **خواطر اقتصادية** ١٦٩

١ ـ وحدة المقاييس ١٧١

٢ ـ الأشياء المتروكة ١٧٤

٣ أولويات ١٧٧

٤ ـ الدَّين ١٧٩

٥ ـ بمقدار الحاجة ١٨٢

(٩) **الروضة النبوية الشريفة** ١٨٥

- **الخاتمة** ١٩٣
- **المحتوى** ١٩٧

* * *